

السفير طاهر شاش

التطرف الإسرائيلي جذوره وحصانه



دار الشروق

التطرف الإسرائيلي
جُذوره وحِمَماه

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار الشروق
أسسها محمد المصطفى عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيوفه المصري - رابعة المندوب - مدينة نصر
ص.ب ٣٣ البابوراما - تليفون ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت ص.ب ٨٠٦٤٠ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)

السفير طاهر شاش

التطرف الإسرائيلي جُذوره وحَصاده

دار الشروق

فهرست الكتاب

صفحة	
٧	مقدمة
١١	الفصل الأول : التراث الدينى والتاريخى لليهود
٢٧	الفصل الثانى : المسيحانية بين الدين والسياسة
٤٥	الفصل الثالث : نشأة اليمين الصهيونى المتطرف
٥٣	الفصل الرابع : الصهيونية والعرب
٧١	الفصل الخامس : أرض إسرائيل التاريخية
٨٣	الفصل السادس : النصر المعجزة والزلازل الكبير
٩٣	الفصل السابع : اليمين الإسرائيلى فى السلطة
١١٧	الفصل الثامن : السلام بين اللىكود والعمل
١٢٧	الفصل التاسع : نيتانياهو وإسرائيل الكبرى
١٤١	الفصل العاشر : حصاد التطرف الإسرائيلى
١٤٧	مراجع الكتاب

تقريباً

تُعدّ الانتخابات الإسرائيلية التي أجريت في التاسع والعشرين من شهر مايو ١٩٩٦ ، نقطة تحول في التاريخ المعاصر لإسرائيل ، يتوقع أن تحدد مستقبل السلام في منطقة الشرق الأوسط .

فقد أسفرت هذه الانتخابات عن فوز بنيامين نتنياهو برئاسة الحكومة في أول اقتراع مباشر لرئيس الوزراء ، كما حصل اليمين الإسرائيلي على غالبية مقاعد الكنيست ، وتزايد عدد المقاعد التي تشغلها الأحزاب الدينية عما حصلت عليه في كافة الانتخابات السابقة .

وقد أجريت انتخابات مايو ١٩٩٦ ، بعد أربع سنوات تولى خلالها حكم إسرائيل ائتلاف حكومي ضمّ إلى جانب حزب العمل برئاسة اسحق رابين ثم شيمون بيريس حزب ميريتس اليساري النزعة ، وتمكن هذا الائتلاف - بفضل تعاون الحزبين - من تحقيق إنجازات هامة على طريق السلام بين إسرائيل والعالم العربي ، تمثلت في الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ، وعقد عدة اتفاقات معها من أجل تسوية القضية الفلسطينية ، ثم عقد معاهدة سلام مع الأردن ، وتطبيع علاقات إسرائيل مع عدد من الدول العربية .

ولم يكن تنفيذ هذه السياسة يجرى دون أن يصطدم بكثير من العقبات ، وأن يواجه بمقاومة عنيفة سواء من جانب العرب أو الإسرائيليين . فقد قوبل إعلان المبادئ الإسرائيلي الفلسطينية بمعارضة شديدة من داخل منظمة التحرير وغيرها من المنظمات الفلسطينية ، ورأت فيه بداية الضياع للقضية ، وأيدتها في ذلك أطراف عربية اعتبرت مفاوضات أوسلو ، وإبرام الاتفاق خروجاً على الصف العربي وإضعافاً لمواقف بقية المفاوضين على المسارات الأخرى . وتصاعدت المقاومة لإعلان المبادئ ولما أعقبه من اتفاقات إلى أعمال عنف ومصادمات واشتباكات داخل الأراضي الفلسطينية ، وفي قلب إسرائيل ، وقذف بالصواريخ على مستوطناتها

الشمالية . وبدأت استطلاعات الرأي العام الإسرائيلي تتأرجح صعودا وهبوطا ، لتعكس مدى انقسام الشعب الإسرائيلي تجاه عملية السلام ومدى ما يمكن أن توفره الاتفاقات المعقودة ، والتي يعتزم عقدها ، من أمن لإسرائيل ويهودها . ووصلت الانقسامات الذروة مع رصاصات إيجال عامير التي قضت على حياة رايبين ومتفجرات « حماس » في القدس وعسقلان وتل أبيب .

وجاءت نتائج الانتخابات الأخيرة لتظهر مدى انقسام الإسرائيليين تجاه قضايا السلام والأمن . فلم يتجاوز الفارق بين بنيامين نتنياهو ومنافسه شيمون بيريس نسبة ١٪ من مجموع الأصوات حيث أحسن نتنياهو استغلال مخاوف الإسرائيليين بعد أن قامت « حماس » بأربع هجمات انتحارية ، وصلت بإحداها إلى أحد الشوارع الرئيسية في تل أبيب ، وهددت وسائل النقل العامة في القدس . ورفع الليكود وأنصاره شعار أمن إسرائيل ، وأن نتنياهو أفضل لليهود في إشارة إلى أن بيريس لا يهتم إلا العرب . وواصل نتنياهو الإدلاء بتصريحات تنذر بتحول كامل في اتجاهات الحكم بعد توليه رئاسة الوزراء ، وأكد لاءات ثلاث لإقامة دولة فلسطينية ، ولتقديم أية تنازلات في القدس ، وللانسحاب من الجولان .

ولرئيس الوزراء الجديد آراؤه اليمينية الشديدة التطرف ، التي سبق أن عبر عنها تفصيلا في كتاب نشره منذ أعوام ، وأحال إليه من استفسروا منه عن اتجاهاته .

ونيتانيا هو من أتباع فلاديمير جابوتنسكى مؤسس الصهيونية التصحيحية ، ويتوقع أن تكون سياسته استمرارا لسياسات ميناحيم بيجين واسحق شامير ، وخاصة فيما يتعلق بالسيادة على ما يعتبرونه أرض إسرائيل التوراتية ، وحق اليهود في استيطان أى جزء منها .

ويتفق المتدينون اليهود مع أولئك الساسة في النظرة إلى تلك الأرض ، ويرفضون أية سيادة أخرى . خلاف السيادة اليهودية . عليها ، وقد تحركوا بالفعل منذ ١٩٦٧ لاستيطان « أرض إسرائيل » . ووجدوا التشجيع الكامل والدعم من حكومتى بيجين وشامير ، وأصبحت « جوش إيمونيم » حركة شبه رسمية تعمل بنشاط لزرع المستوطنات حتى في المدن الفلسطينية الأهلة بالسكان . وقد تواصل تنفيذ الخطط الحكومية الواحدة بعد الأخرى ، لنشر المستوطنات بطريقة تحول عملا دون فصلها عن إسرائيل في أية تسوية متوقعة .

والواقع أن وصول ميناخيم بيجين ، وكتلة الليكود إلى الحكم بعد ثلاثين عاما سيطرت خلالها الصهيونية العمالية على حكم إسرائيل ، قد انتقل بإسرائيل إلى مرحلة جديدة من تاريخها المعاصر . ففي حين يتفق جناحا الصهيونية العمالي والتصحيحي على هدف بناء الدولة اليهودية على ما يعتبرانه أرض إسرائيل التاريخية ، وضمن بقائها واستقرارها ورفاهيتها ، فإن الصهيونية العمالية فضلت انتهاج سياسة المراحل لتنفيذ هذا الهدف ، أما الصهيونية التصحيحية ، فقد اتسمت اتجاهاتها منذ البداية بالثورية والتطرف .

وعلى الرغم من أن كلا الاتجاهين يرفعان شعار العلمانية الذي وضعه تيودور هيرتزل عندما أسس حركته الصهيونية ، فما كان لهذه الحركة أن تنجح إلا نتيجة لاستنادها إلى تراث ديني وتاريخي ، غرسه الحاخامات اليهود في وجدان الجاليات اليهودية في الشتات الذي عاشت فيه ما يقرب من ألفى عام بعد فرارها من فلسطين . ومحور هذا التراث هو الوعد الإلهي لبنى إسرائيل بمنحهم أرض كنعان ، التي سموها أرض إسرائيل ، وإعادتهم إليها على يد المسيح الذي يحارب الشر ويهزم الأمم الأخرى ، ويعلى كلمة إسرائيل عليها جميعا . وهكذا تحولت تلك المسيحانية الدينية إلى مسيحانية سياسية تمثلت في الصهيونية التي ضمت الجناحين المذكورين ، وغيرهما من أجنحة وتيارات .

وتنفيذاً لسياسة المراحل العملية ، توالى إرسال موجات المهاجرين اليهود إلى فلسطين ، وتعاونت الوكالة اليهودية مع سلطة الانتداب البريطاني في بناء الوطن القومي اليهودي ، ثم أقامت دولة إسرائيل وأفرغت فلسطين من غالبية شعبها العربي ، ووسعت رقعة الدولة بجيوشها . ولكن احتلالها لمساحات شاسعة من أراضي الدول العربية واستيلاءها على أرض فلسطين كاملة في حرب ١٩٦٧ ، كان من شأنهما تفجير الانقسامات بين ساسة إسرائيل وقطاعات الرأي العام فيها . فقد سنحت فرصة فريدة أتاحتها ذلك النصر الذي اعتبره الكثيرون معجزة إلهية . وازدادت الانقسامات في أعقاب حرب ١٩٧٣ ، التي أطلق عليها الإسرائيليون اسم الزلزال بسبب الهزة العنيفة التي أصابت إسرائيل نتيجة للانتصارات التي حققها الجنود المصريون والسوريون في المعارك .

وتوجه النخبون الإسرائيليون نحو الليكود ، يلتسمون من حكمه التغيير الذي رأوه ضروريا لإرساء قواعد الدولة العبرية التي هزها زلزال أكتوبر ، ونجح بيجين في عقد

معاهدة سلام مع كبرى الدول العربية وإخراجها من دائرة المواجهة ، ولكنه عقد تحالفا مع الأصولية الدينية اليهودية من أجل بسط سيادة إسرائيل على أرضها التوراتية ، وبدأت مرحلة الاستيطان المكثف لما اعتبره أرض إسرائيل ، فى حدود تشمل كل «يهودا والسامرة» والقدس وقطاع غزة ومرتفعات الجولان . ومضى اسحق شامير فى تنفيذ سياسة استيطانية طموحة أثقلت ميزانية الدولة وعانى منها الاقتصاد الإسرائيلى ، وأدت إلى التوتر مع الإدارة الأمريكية . وكانت النتيجة سقوط الليكود ، وتولى العمل من جديد السلطة .

واستبشر العالم بما بدا من نوايا اسحق رابين وشيمون بيريس لفتح صفحة جديدة فى تاريخ الشرق الأوسط ، يسودها التعاون بين شعوبه وإقامة السلام مقابل إعادة الأراضي المحتلة إلى أصحابها . وبدأت تباشير السلام المنشود تلوح فى الأفق ، بالرغم من هواجس الأمن التى تحكممت فى الخطوات المترددة للزعيمين الإسرائيليين ، ولكن التطرف الأصولى كان لهما بالمرصاد ، ودفع رابين حياته ثمنا لما اعتبره التحالف الدينى واليميني خيانة وتفريطا فى أرض إسرائيل . والتقى التطرف من جانب وآخر فى عرقلة مسيرة السلام بالجثث والدماء .

وعاد اليمين الإسرائيلى إلى كراسى الحكم متحالفا مع أحزاب دينية يجمع بينهما هدف أساسى هو بسط سيادة إسرائيل على أرض إسرائيل التاريخية أو الدينية - بحسب نظرة أى منها - وحسب مفاهيم تمتد بحدودها لتشمل كل ما تبقى من الأراضى العربية المحتلة : فلا دولة فلسطينية - ولا تقسيم للقدس - ولا انسحاب من الجولان - ولا حدود لعمليات الاستيطان والتهويد - ولا عودة للاجئين .

وكلها لاءات تتردد صراحة على لسان نيتانيا هو ، وهى نتاج تاريخ طويل من التطرف صاحب الحركة الصهيونية منذ نشأتها . تطرف قد تعلو لهجته حيناً وقد يغلف بستاير دبلوماسية فى بعض الأحيان ، وقد تخف حدته تحت وطأة الظروف ثم يأخذ طريقه من أجل إقامة الدولة اليهودية وتوسعها على حساب أصحاب الأرض كلما سنحت الظروف المناسبة .

وسوف نستعرض فى هذا الكتاب - وبإيجاز شديد - التاريخ المأساوى لهذا التطرف .

مصر الجديدة فى ٢٠ سبتمبر ١٩٩٦

الفصل الاول التراث الدينى والتاريخى لليهود

السمة القومية لليهودية :

لعل السمة البارزة للديانة اليهودية هى أنها ديانة قومية ، تركز على فكرة أساسية مفادها أنها منزلة على أمة معينة هى أمة بنى إسرائيل التى عقد الآله معها ميثاقا تقوم بمقتضاه بعبادته والالتزام بتعاليمه ، مقابل أن يعطى بنى إسرائيل أرضا محددة يمكنهم من غزوها ، وأن يتولى حمايتهم ويجعل منهم أمة عظيمة .

فبالرغم من أنه يجوز لأى شخص أن يعتنق اليهودية ، فإنه لكى يعتبر الشخص يهوديا فإنه يجب أن يكون مولودا لأم يهودية . أى أن اعتناق من لا تكون أمه يهودية لها وإن كان يدخله ضمن المعتقدين بهذه الديانة إلا أنه ، لا يجعله واحدا من أمة اليهود التى تقتصر على شعب بنى إسرائيل .

ويعتبر الشعب اليهودى نفسه من سلالة قبيلة سامية هى قبيلة إبراهيم عليه السلام ، الذى رحل من بلدة أور فى العراق إلى بلاد كنعان (فلسطين) حيث استقر بها وتلقى رسالة السماء . وقد عقد إلاله مع إبراهيم الميثاق بأن يجعله منشاء أمة اختارها سبحانه لعبادته .

وتسرد التوراة قصص إبراهيم وولده اسحق وحفيده يعقوب ، وأبناء يعقوب الاثنى عشر والذين تشكلت منهم قبائل بنى إسرائيل ، فقد سمى الرب يعقوب : إسرائيل ، وتروى كيف استقرت هذه القبائل فى مصر حيث استعبدوا فرعون إلى أن خرج موسى عليه السلام ببنى إسرائيل وعبر بهم البحر ، وعلى جبل سيناء أنزل الإله على موسى التوراة .

والتاريخ اليهودي جزء لا يتجزأ من الديانة اليهودية ، فكل أسفار التوراة - عدا إثنين أو ثلاثة - ذات طابع تاريخي . ويطلق على هذا التاريخ كما ترويه التوراة اسم « التاريخ المقدس » .

ومحور هذا التاريخ هو أن اليهود هم شعب الله المختار ، الذي اختصه بالتوراة ، وحرره من عبودية فرعون ، ومكنه من غزو أرض كنعان ، ولكنه عصى الرب فغضب عليه وعاقبه فأوقعه في الأسر البابلي ثم سلط عليه الحكام الأجانب وشتته في الأرض ، ولكنه سوف يصفح عنه ويعيده إلى أرض إسرائيل ، وينصره على كل الأمم .

ففي سفر الخروج ، ينادى الرب موسى من الجبل قائلاً : « هكذا تقول لبيت يعقوب وتخبر بني إسرائيل . أنتم رأيتم ما صنعت بالمصريين . وأنا حملتكم على أجنحة النسور وجئت بكم إلى » ، فالآن إن سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي تكونون لي خاصة من بين جميع الشعوب ، فإن لي كل الأرض ، وأنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة » (الإصحاح التاسع عشر) .

وينذر الرب بني إسرائيل بأنهم إذا ما عصوه ولم يتبعوا أوامره قائلاً : « وأصير مدنكم خربة ومقادسكم موحشة ولا أشتم رائحة سروركم . فأوحش الأرض فستوحش منها أعداؤكم الساكنون فيها ، وأذريكم بين الأمم وأجرد وراءكم السيف فتصير أرضكم موحشة ومدنكم تصير خربة . . فتهلكون بين الشعوب وتأكلكم أرض أعدائكم ، والباقيون منكم ينفون بذنوبهم في أراضى أعدائكم » .

ولكنه يصفح عنهم إذا ما تابوا عن ذنوبهم ، فيقول : عندئذ « أذكر ميثاقى مع يعقوب وأذكر أيضاً ميثاقى مع اسحق وميثاقى مع إبراهيم وأذكر الأرض . . ولكن مع ذلك أيضاً متى كانوا في أرض أعدائهم ما أبيتهم ولا كرهتهم حتى أبيدهم وأنكث ميثاقى معهم لأنى أنا الرب إلههم » . (سفر اللاويين - الإصحاح ٢٦) .

وتعتبر التوراة هي مصدر التاريخ القديم للشعب اليهودي ، وكانت الفكرة السائدة هي أن الخمسة أسفار الأولى للتوراة (The Pentateuch) هي التي أنزلت على موسى عليه السلام على جبل سيناء ، ولا يزال اليهود الأرثوذكس يعتبرونها تنزيل الله إلى شعبه ، وأن ما تتضمنه من أحداث صحيحة من جميع النواحي حيث إن الله هو صاحبها .

والأسفار الخمسة الأولى للتوراة- وهى التكوين ، والخروج ، واللاويون ، والعدد ، والثنية- تتضمن أحكام الشريعة الدينية إلى جانب تاريخ الخليقة والتاريخ اليهودى القديم حتى وفاة موسى عليه السلام .

ومع السفر السادس ، سفر يشوع ، تبدأ قصة غزو اليهود (أو العبرانيين) لأرض كنعان ، ويبدأ معه تاريخ العلاقة الثلاثية بين : الله - والشعب اليهودى - وأرض إسرائيل ، كما تحكيه التوراة (أو ما يسمى بالعهد القديم) .

وقد مرّ هذا التاريخ - حسبما ورد فى التوراة - بعدة مراحل : غزو اليهود لأرض كنعان واستيطانها - وإقامة المملكة المتحدة - وانقسام المملكة المتحدة إلى مملكتين : يهودا والسامرة - والقضاء على المملكة الشمالية - والأسر البابلى - والعودة إلى أرض إسرائيل وثورة المكابيين والحرب اليهودية ضد الرومان والشتات .

وقد تشكلت الديانة اليهودية فى هذه المراحل المتتابعة للتاريخ اليهودى متأثرة بأوضاع اليهود خلالها .

أما عن غزو أرض كنعان ، فقد أوردت التوراة قصة هذه الغزو ، « وكان بعد موت موسى عبد الرب ، أن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلاً : موسى عبدى قد مات . فالآن اعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التى أنا معطيها لهم (أى لبنى إسرائيل) . كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات جميع أرض الحيثيين وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تحكمكم » (يشوع - الإصحاح الأول) .

وعلى الرغم مما تضمنه سفر يشوع من تفاصيل لهذا الغزو وتصويره له بأنه كان انتصاراً هائلاً بدأ بسقوط حائط مدينة أريحا ، فإن علماء الآثار والتاريخ وجدوا أن حوائط المدينة كانت قد حُرقت منذ وقت طويل سابق على الغزو اليهودى ، كما شككوا فى أوصاف ذلك السفر للمعارك والانتصارات مرجحين أن استيلاء اليهود على أرض كنعان تم تدريجياً وعن طريق التسلل .

كما شكك العلماء فيما ورد فى السفر المذكور عن استيطان اليهود لأرض كنعان بأكملها ، وإنما استوطنوا - حسب أبحاثهم - المناطق الجبلية التى كانت بعيدة عن تأثير المدن وكانت قليلة السكان وغير قادرة بالتالى على صد الغزو ، ولم يتم استيطان المدن إلا بعد أن انتهج اليهود سياسة التوسع فى بداية الألف الأولى قبل الميلاد (*) .

(*) Lavinia and Dan Cohn - Sherbok : A Short History of Judaism.

وتمضى التوراة فى سرد التطورات التاريخية التى مرّ بها الشعب اليهودى منذ غزو أرض كنعان واستيطانها ، فتروى تاريخ عصر القضاة ، ثم عصر الملوك الذى بدأ حوالى عام ١٠٥٠ ق.م . بتنصيب شاول ملكا على اليهود ثم تولى داود عليه السلام الملك ، واتساع رقعة مملكة اليهود فى عهده وعهد خليفته سليمان عليه السلام ، وبناء الأخير هيكل سليمان فى أورشليم ، التى كان قد استولى عليها داود ، وأقام فيها عاصمة المملكة . وقد كان عمر مملكة اليهود المتحدة فى عهده داود وسليمان قصيرا لا يتجاوز ثمانين عاما ، ثم انقسمت بعد وفاة سليمان إلى دولتين : لإسرائيل وعاصمتها (السامرة) ويهوذا وعاصمتها (أورشليم) ، ونشبت الحروب بين الدولتين ثم استولى الآشوريون على السامرة عام ٧٢٢ ق.م . واقتادوا الكثيرين من أهلها إلى آشور ، وقد اختفت منذ ذلك الوقت القبائل اليهودية العشر التى كانت تعيش فى مملكة السامرة ، ويختلف المؤرخون بشأن مصيرها وإن كان الراجح أن أفرادها تزاوجوا من الآشوريين واندمجوا معهم ، وفى عام ٥٨٦ ق.م قضى نبوخذ نصر ملك بابل على دويلة يهوذا ، ودمر أورشليم وحرّق الهيكل واقتاد ملكها وزعماءها والآلاف من سكانها إلى الأسر البابلى .

وتسجل التوراة الوقع الأليم للمنفى فى نفوس اليهود « على أنهار بابل هناك جلسنا . بكينا أيضا عندما تذكرنا صهيون . على الصفصاف فى وسطها علقنا أعودنا . كيف تُرْثَم ترنيمه الرب فى أرض غريبة . إن نسيك يا أورشليم تنسى يمينى ، يلتصق لسانى بحنكى إن لم أذكرك ، إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحى » (مزمير ١٣٧) . ومع ذلك ، فقد أوردت التوراة ذاتها ما يدل على أن الجالية اليهودية فى بابل قد حققت لنفسها الثراء وتلقت معاملة كريمة من ملكها (دانييل ١ و ٢) .

فى فترة الأسر البابلى (الجالوت) ، التى استمرت حوالى نصف قرن ، عمل أنبياء بنى إسرائيل من أمثال حزقيال وإشعيا على الحفاظ على الديانة اليهودية ، والدعوة إلى إعادة بناء الهيكل ، وأصبح (المعبد السينا جوج) محل العبادة حيث كان يجتمع اليهود لإقامة الصلوات وتلاوة التوراة ، ولكن توقف تقديم الأضحية إذ أنها لا تقدم إلا فى الهيكل . كما عمل الأنبياء على إحياء أمل يهود المنفى فى العودة إلى « أرض إسرائيل » ، داعين إياهم إلى الصلاح والتوبة حتى يصفح عنهم الرب . وفى عام ٥٣٩ ق.م هزم قورش ملك الفرس البابليين ، وسمح لمن يشاء من اليهود بالعودة إلى بلادهم ، ففضل فريق البقاء فى بابل وعاد الآخرون وبنوا الهيكل من جديد .

ولكن الهيكل دمر مرة أخرى على أيدي أنطوخوس الملك السلوقي الذي أخمد ثورة المكابيين (١٦٧ - ١٦٤ ق.م) وأعيد بناء الهيكل في عهد الرومان ، وقامت ثورة جديدة بقيادة باركوخبا (١٣٢ - ١٣٥ م) فأخمدها الرومان .

ودمر الهيكل نهائيا عام ٧٠م على يد تيتوس ، الذي حرق الهيكل ولم يبق منه سوى الحائط الغربى (المسمى بحائط المبكى) وطارد الثوار The zealots الذين تحصنوا فى قلعة ماسادا وآثروا الانتحار على الاستسلام .

وكان اليهود قد بدأوا يهاجرون من فلسطين منذ القضاء على ثورة باركوخبا ، ثم تزايد عدد المهاجرين بعد تدمير تيتوس للهيكل ، وبدأت مرحلة الشتات اليهودى فى بلدان الامبراطورية الرومانية .

وأصبحت فلسطين جزءا من الامبراطورية الرومانية البيزنطية ، منذ القرن الرابع الميلادى إلى أن فتحها العرب عام ٦٣٣م . وظلت تحت حكم الدولة العربية والإسلامية إلى أن سلخت من الامبراطورية العثمانية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ووضعت تحت الانتداب البريطانى منذ عام ١٩٢٢م ، ثم أقيمت عليها دولة إسرائيل فى ١٥ مايو ١٩٤٨م .

التوراة كمصدر للتاريخ :

التوراة هى مصدر التاريخ القديم لليهود . وقد ظلت الفكرة السائدة - كما سبق القول - هى أن الخمسة أسفار الأولى قد أنزلت حرفيا على موسى عليه السلام عند جبل سيناء ، الأمر الذى لا يزال اليهود الأرثوذكس متمسكين به ، ومؤمنين بأنها وحى الله المنزل إلى شعبه «إسرائيل» .

غير أن الخبراء المتخصصين فى دراسات التوراة ، انتهوا فى أبحاثهم إلى أن الأسفار الخمسة الأولى من التوراة قد جمعت من مصادر مختلفة . فقد توصل العالمان الألمانيان كارل هينريخ ، ويوليوس فلهاوزن إلى أن الاختلافات التى تتضمنها الأسفار لا يمكن تفسيرها إلا بأنها مجموعة من أربعة مصادر مختلفة . وقد أطلقوا على هذه المصادر رموزا هى : J و E و D و P . فالرمز الأول «J» الحرف الأول من اسم إله إسرائيل يهوا JHWH يرمز إلى مصدر من القرن التاسع قبل الميلاد وموطنه مملكة يهودا . والثانى «E» ، الحرف الأول من اسم الإله ، كما استعمل فى وقت

كتابته إيلوهيم ELOHIM ويرمز إلى مصدر من المملكة اليهودية الشمالية في القرن الثامن قبل الميلاد . أما الثالث « D » ، فهو الحرف الأول من Deuteronomy سفر التثنية ، ويرمز إلى مصدر من القرن السابع ، والرابع « P » الحرف الأول من كلمة Priests (الكهنة) يرمز إلى مصدر من القرن السادس الميلادي كان يركز اهتمامه على شؤون الكهنة ومسائل الأضحية .

ويتفق علماء الدراسات التوراتية على أن الأسفار الخمسة الأولى للتوراة - وهي مجموعة من مصادر مختلفة ليست بالضرورة مصادر مكتوبة ، بل قد تكون روايات سائرة - لم يكتبها موسى عليه السلام .

ومن ناحية أخرى ، فإنه نظرا لأن التاريخ المصري القديم - وهو التاريخ المكتوب عن تلك المرحلة التاريخية - قد جاء خلوا من تاريخ بني إسرائيل إلا بإشارة عابرة (*) - فقد نشطت حركة التنقيب عن الآثار بهدف التوصل إلى ما يثبت الحقائق التاريخية لما ورد في التوراة .

وقد جاءت نتائج التنقيب متناقضة مع كثير من الروايات التي أوردتها التوراة . وقد سبقت لنا الإشارة إلى تعارض الرواية التي جاءت في سفر يشوع ، عن غزو بني إسرائيل لمدينة أريحا وسقوط حائطها على أيديهم . كما أثبت علماء الآثار أن المدينة الثانية (عائ) التي يذكر السفر أن اليهود فتحوها ، كانت قد تحطمت في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد ، ولم تسكن مرة أخرى إلا منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد . وبوجه عام أكدت النتائج أن المواقع الأخرى التي سجل السفر أنها سقطت أمام الغزو اليهودي إما لأنها كانت غير مأهولة ، أو كان تدميرها قد وقع بعد قرن من الزمان في زمن هجوم الفلسطينيين القادمين من كريت .

وبالرغم من جهود العلماء الإسرائيليين من أمثال إيجال يادين ، وعدد من العلماء الأمريكيين لمحاولة إثبات الحقيقة التاريخية لقصة الغزو اليهودي كما وردت في التوراة ، فإن الدراسات التوراتية قد أثبتت أن دخول بني إسرائيل أرض كنعان كان سلميا ، وعن طريق التسلسل ، وأنهم كانوا يتعدون عن المدن ، ويعيشون في المناطق الجبلية .

(*) المقصود بهذه الإشارة العبارة المكتوبة على لوحة مرنبتاح ابن رمسيس الثاني . « سحق إسرائيل ولم يبق له سسل » ، وتشير إلى تواجد قوم إسرائيل في أرض كنعان .

ويبدو أن أجزاء كبيرة من التوراة قد كتبت أثناء فترة السبي البابلي ، وأن كتبها قد تأثروا بوجه خاص بفتوحات رمسيس الثالث ملك مصر ، حيث إن الروايات التي تتضمنها أسفارها عن فتوحات بنى إسرائيل ، ومملكة داود وسليمان تشبه إلى حد كبير ما تضمنه التاريخ المصري القديم عن حروب ذلك الفرعون (*) .

العهد الإلهي :

العقيدة الأساسية في اليهودية هي العهد الإلهي لإبراهيم (عليه السلام) ، والذي أصبح عهداً بين الإله وبين بنى إسرائيل بأن يعطيهم الأرض التي يعيشون فيها ، على أن يعبدوه ويخدموه ويتبعوا شريعته .

فالإله هو رب إسرائيل ، والأرض هي الأرض المقدسة ، وبنو إسرائيل هم الشعب المختار ، والعهد (أو العقد أو التحالف) هو تعهد من الإله بإعطائهم هذه الأرض المقدسة مقابل عبادته وطاعته وتطبيق وصاياه وقوانينه الإلهية .

وقد جاءت أول إشارة إلى هذا العهد في الإصحاح الثاني عشر من سفر التكوين ، عندما خاطب الإله إبراهيم أثناء وجوده في شيشم (نابلس الحالية) قائلاً : « لك ولدريتك سوف أعطى هذه الأرض » .

وعندما كان إبراهيم واقفاً على تل قريب من بيت إيل ، تلقى هذه الكلمات « كل هذه الأرض التي تراها سوف أعطيها لك ولدريتك إلى الأبد » (الإصحاح ١٣ من سفر التكوين) ثم يصبح العهد أكثر صراحةً وتحديداً « لك ولدريتك أعطيت هذه الأرض : من نهر مصر إلى النهر العظيم . . نهر الفرات » .

وبعدها ، يتكرر العهد مع اسحق (عليه السلام) ، ويستبعد نسل إبراهيم من ميراث الوعد ويحل محلهم نسل سارة « عهدى أقيم مع اسحق الذي تلده لك سارة » ، وهكذا يحرم أبناء اسماعيل من العهد الإلهي . ثم يتكرر العهد إلى موسى (عليه السلام) وبنى إسرائيل في سيناء ، « وقال الرب لموسى اذهب اصعد من هنا أنت والشعب الذي أصدعته من أرض مصر إلى الأرض التي حلفت لإبراهيم واسحق

(*) أحمد عثمان - تاريخ اليهود

ويعقوب قائلاً لنسلك أعطيها » (سفر الخروج - الإصحاح ٢٣) وبعد موت موسى كلم الرب يشوع بن نون خادم موسى قائلاً : « موسى عبدى قد مات . فالآن أعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التى أنا معطيها لهم أى لبنى إسرائيل . كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيه كما كلمت موسى ، من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات ، جميع أرض الحثيين وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تحكمكم (يشوع - الإصحاح الأول) .

وأخيراً ، يصبح العهد أبدياً فى بيت داود (عليه السلام) ، فإن الرب يكافئه على ولائه له ، فيعده بأنه هو وذريته سوف يحكمون إلى الأبد « متى كملت أيامك واضطجعت مع آبائك ، أقيم بعدك نسلك الذى يخرج من أحشائك وأثبت مملكته ، هو يبنى بيتاً باسمى ، وأنا أثبت كرسى مملكته إلى الأبد » (صمويل الثانى - ١٤) .

ومن الواضح أن تصوير التوراة للعهد الإلهى يجعل منه عهداً أبدياً ، يبدأ من الوحي الذى أنزله الرب إلى إبراهيم ، ويظل ممتداً وقائماً إلى الأبد فى بيت داود الذى يعده الإله بأن مملكته سوف تظل فى ذريته إلى أبد الأبد .

وقد أثار حرص كتبة التوراة على تأكيد أبدية هذا العهد انتباه الخبراء المتخصصين فى دراسات العهد القديم ، حيث لاحظوا إن هذا التأكيد استمر إلى ما بعد القضاء على مملكة داود وذريته من بعده فى عام ٥٨٧ . وذهب أحدهم (فرانك مور كروس) إلى أن كاتبين مختلفين حررا سفر الملوك ، أحدهما كان يعيش فى عهد الملك يوشيا ، وكان متفائلاً وواثقاً من أبدية مملكة داود ، والآخر عاصر تدمير المملكة ، وروى فى الفصلين الأخيرين من سفر الملوك الثانى ما حدث فى عهد الملوك الأربعة الآخرين لمملكة يهوذا وأبقى على الرواية السابقة على حالها .

ويذكر الدكتور أحمد عثمان فى كتابه عن « تاريخ اليهود » (الجزء الأول - دار الشروق) أنه من السهل لنا أن نلاحظ وجود اختلافات - تبدو أحياناً متناقضة - فى محتوى هذه القصة (قصه العهد الإلهى) والسر وراء هذه الاختلافات ، كما أظهرت أبحاث علماء الدراسات التوراتية هو أن القصة قد جمعت من ستة مصادر مختلفة بعضها كان مكتوباً ، والبعض كان يتداول شفويًا ، وتم جمع هذه الروايات وتدوينها للمرة الأولى فى بابل خلال القرن السادس قبل الميلاد ، بعد مرور ثمانية قرون على وفاة موسى .

أما بالنسبة للمقصودين بالعهد الإلهي ، فإن ألفريد جويوم أستاذ دراسات العهد القديم بجامعة لندن ، يرى أن كلمة نسلك thy seed فى كلام الرب إلى إبراهيم لا شك تشمل العرب من أبناء اسماعيل ، فالتوراة تنص صراحة على ما قاله الإله لإبراهيم « ومن أبناء الجارية أيضا سوف أصنع أمة لأنهم من نسلك » ، كما أنه يرى - بالنسبة لشروط العهد مع موسى - أنه كان مشروطا باخلاص اليهود واتباعهم الوصايا والقوانين الإلهية ، فقد حذر موسى بنى إسرائيل بأن عصيانهم سوف يوقع عليهم لعنة الرب الذى سيشتتهم فى كل أنحاء الأرض (*) .

ويعتبر المسيحيون العهد الإلهي موجهًا إلى كافة المؤمنين ، فإسرائيل - بحسب قول بول الرسول - هى جماعة كل المؤمنين . ويذكر القس المسيحي الدكتور أوفيد سيلارز أستاذ العهد القديم « إن المسيحي الذى يستند إلى الكتب المقدسة لا يعتبر إسرائيل وحدة جغرافية أو عنصرية أو سياسية ، وإنما يعتبرها جماعة المؤمنين . . إسرائيل الرب » كما يرى القس جوناثان شيرمان « إن الله قد وعد بميثاق جديد ليس مكتوبا على الألواح الحجرية بل فى قلوب الناس ، وبدلا من الانتصار على الأعداء البشر ، فإن عيسى يعطينا النصر على الخطيئة والموت » .

ومن ناحية أخرى ، يتساءل عدد من المفكرين عن بنى إسرائيل المستفيدين بالعهد الإلهي ، مدللين على أن اليهود الحاليين - بعد تشتتهم واختلاطهم بالأجناس المختلفة فى العالم - لا يمكن اعتبارهم أبناء العبرانيين فى زمن إبراهيم ويعقوب .

وعلى أية حال ، فإن المتدينين اليهود ، بوجه عام ، يعتبرون أنفسهم أصحاب العهد الإلهي الذى أصبحوا بناءً عليه ورثة أرض إسرائيل ، وأن عليهم واجبا مقدسا باستيطانها وتطبيق الشريعة الإلهية فيها .

أما حدود « أرض إسرائيل » ، فقد تداخلت العوامل السياسية والتاريخية اليهودية مع التفسيرات الدينية فى تحديدها على نحو ما نتعرض له فيما بعد .

المسيحانية اليهودية :

ينطلق الفكر اليهودي من أسطورة دينية مفادها أن اختيار الإله لإسرائيل كان

(*) Sami Hadawi · Bitter Harvest.

بالخطوة الأولى لبلوغ غاية مرسومة هي إقامة المملكة الإلهية و خلاص البشرية فإن عليها أن تنقل إلى الأمم الرسالة الربانية وتتضمن التوراة التاريخ اليهودي (والمسمى التاريخ المقدس) ، باعتباره حلقات تنتهي بتحرير الإنسان ، ويتدخل الإله لكي ينصر الخير على الشر ويمهد للعهد المسيحاني . وسوف يظهر المسيح ، ويحطم الأمم العاصية ويهزم الملوك الذين يهاجمون صهيون (يلاحظ أن كلمتي إسرائيل وصهيون تعبران عن شعب إسرائيل وأرضها) ، ويقا تل يأجوج ومأجوج ، ويتنصر رب إسرائيل وتؤمن به جميع الأمم وتخضع لحكمه ، ويعود المنفيون من شتاتهم وتولد (صهيون) من جديد ويقام المعبد في القدس ويقم فيه رب إبراهيم ، وعندئذ يسود السلام والعدل بين الأمم وتختفى الحروب ويزول الفقر والمرض .

ويصف أنبياء إسرائيل يوم الرب ، فيقول إشعيا : « يكون في آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتا في رأس الجبال ، ويرتفع فوق التلال وتجري إليه الأمم وتسير شعوب كثيرة ، ويقولون هلم نصعد إلى جبل الرب إلى بيت إله يعقوب فيعلمنا من طرفه ونسلك في سبله لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب فيقضى بين الأمم وينصف لشعوب كثيرين فيطبعون سيفهم سككا ورماحهم مناجل . لا ترفع أمة على أمة سيفا ، ولا يتعلمون الحرب فيما بعد » (إشعيا - الإصحاح الثاني) .

فخلاص البشرية يتبع خلاص إسرائيل ، فهي التي عقد الإله معها ميثاقا لا ينقص ومهما كانت معصيتها ، فإنه يعاقبها بالشتات في المنفى من أجل تطهيرها ، ثم يصفح عنها « لأن بني إسرائيل سيقبضون خلال أيام طويلة بدون ملك وبدون رؤساء . وبعد ذلك سوف يعود بنو إسرائيل ، وسوف يبحثون عن إلههم الأبدى ، وعن داود ملكهم ، ويسارعون مرتعدين نحو إلههم » .

فالنبوة الدينية ، هي العودة إلى الإله ، كما أنها عودة بني إسرائيل إلى الأراضي المقدسة « حيث يعقد الرب تحالفا جديدا معهم وتعود لهم عزتهم وقوتهم . ويضع الإله حدا لثرم ل إسرائيل » . ويخاطب إشعيا إسرائيل قائلا . « ارفعي عينيك حواليك وانظري . قد اجتمعوا كلهم جاءوا إليك . يأتي بنوك من بعيد وتحمل بناتك على الأيدي . حينئذ تنظرين وتنيرين ويخفق قلبك ويتسع لأنه تتحول إليك ثروة البحر ويأتي إليك غنى الأمم » (إشعيا - الإصحاح ٦٠) .

فإعادة بناء إسرائيل سياسيا هي - لدى أنبياء اليهود - شرط مسبق للمسيحانية .
والمسيح نفسه من نسل داود ، وهو الذى يعيد عرش داود من جديد .

وقد طرأ على الفكر المسيحاني تطور حاسم ، منذ إخماد الرومان لثورة باركوخبا عام ١٣٥ ميلادية ، فقد قامت ثورته للمطالبة باستقلال اليهود وإقامة شعائر الهيكل ، واعتبره زعيم الحاخامات فى ذلك الوقت المسيح المخلص ، ولكن انتهت الثورة بموت آلاف اليهود واستعباد من بقى منهم .

وبعد تدمير الهيكل سنة ٧٠ ميلادية ، انتقل اهتمام الحاخامات إلى دراسة الشريعة اليهودية والدعوة إلى انتظار مشيئة الإله ، وتحريم العمل من أجل الخلاص ، والأمر بالتخلي عن الأفكار المسيحانية ، وعدم استعجال نهاية الزمان أو السعى للتعجيل بها ، ووصفوا باركوخبا بأنه مسيح دجال .

وتولى الحاخامات الغربيون تطويع الشريعة والأعياد لحياة الشتات بعيداً عن القدس ، وتضمنت تعاليمهم أن اليهودى يمكنه أن يؤدى فرائضه فى كل مكان ، وليس لزاما عليه أن يحج إلى القدس وإنما يكفيه أن يتذكرها ويذكر الهيكل . ومع ذلك ، فقد عملوا على إبقاء ذكرى الأراضى المقدسة حية فى نفوس يهود الشتات ، فعلى اليهودى أن يتلو فى صلواته ثلاث مرات فى اليوم الدعاء بإنزال الرحمة على شعب إسرائيل وعلى القدس ، وأن يصوم ثلاثة أسابيع إحياء لذكرى هدم الهيكل .

وفى أزمنة الاضطهادات والاضطرابات ، كان اليهود البسطاء يتعلقون ببعض الشخصيات ويتبعونها تحت تأثير الفكرة المسيحانية . ومن أشهر هذه الشخصيات شابتاى تسفى الذى ظهر فى القرن السابع عشر فى فلسطين ، (بعد مقتل الآلاف من يهود أوروبا الشرقية على أيدي القوزاق) ، وتجاوت معه أكثرية اليهود فى تجمعاتهم فى أنحاء العالم ظنا منهم أنه المسيح المخلص . وقد استحدث شرائع جديدة وأبطل فرائض ، وغير التقويم إيذانا ببدء العهد المسيحاني . وإزاء هذه الاضطرابات التى أحدثها - حيث استعد اليهود فى كل مكان لاستقباله ، أو السفر إليه - قام السلطان العثماني بسجنه وخيره بين القتل ، أو اعتناق الإسلام فاختر الخروج من اليهودية واعتناق الدين الإسلامى .

وكان موسى بن ميمون قد حذر من اجتذاب اليهود نحو المسحاء الدجالين فلا قبل لأحد أن يعرف تفاصيل هذا الأمر وما شابهه حتى يقع ، لذلك ليس لأحد أن يشغل

نفسه بالأفكار الخرافية . . وليس له أن يحسب زمان قيام الساعة ، فقد قال
الحاخامات : ملاعين هم أولئك الذين يحسبون لقيام الساعة ، وعلى المرء أن ينتظر
مجيء المسيح ويسلم بهذه العقيدة ، فالإله وحده هو القادر على إحلال العصر
المسيحاني في زمن لا يعلمه أحد غيره .

المذاهب اليهودية : (*)

التوراة ، هي المصدر الأول للديانة اليهودية . وتشمل إلى جانب التعاليم
والأحكام الدينية مجموعة القوانين والعادات وأنماط الحياة وقواعد السلوك ، كما أنها
كتاب التاريخ والتشريع والأناشيد . وتستخدم كلمة التوراة حالياً للإشارة إلى
أسفار موسى الخمسة المكتوبة باليد والم محفوظة في تابوت العهد في المعبد
اليهودي .

ويؤمن اليهود بأن هناك شريعتين : مكتوبة ، وشفوية ، الأولى ، هي ما تلقاها
موسى عند جبل سيناء ، والثانية هي التي يتناقلها الحاخامات عن موسى ولها نفس
قداسة التوراة المكتوبة .

والتلمود هو الشريعة الشفوية ، وهو موسوعة تشمل موضوعات متعددة تتضمن
الدين والشريعة والتاريخ والعلوم والآداب والزراعة والصناعة والأطعمة وغيرها
وقد بدأ تدوين التلمود في بداية العصر المسيحي واستغرق تأليفه حوالي ٥٠٠ عام .
ويوجد تلمودان : التلمود البابلي ، والتلمود الأورشليمي . ويتكون كل منهما من :
المشناه - والجماراه (التي تنقسم بدورها إلى واحدة كتبت في فلسطين ، والأخرى في
بابل وهي أشمل من الأولى) والتلمود عبارة عن تفسير الحاخامات للعهد القديم
يتناسب مع أوضاع اليهود في الشتات ، ولذا فإنه يعكس مشاعرهم تجاه الأضياع
ويختص اليهود بمكانة خاصة متميزة عن غيرهم من الشعوب ، وتغلب على أحكامه
النزعة الانعزالية المتعالية . ويستخدم تعبير « الها لاخاه » للدلالة على الجانب
التشريعي لليهودية ككل . وإلى جانب التوراة والتلمود ، توجد كتب صوفية مثل كتب
« القبالة » أي علم التأويلات الباطنية والصوفية عند اليهود ، وأهمها كتاب « الزوهار »

(*) الدكتور عبد الوهاب المسيري : موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية .

الذى يعالج موضوعات تتعلق بالخالق وطبيعته وصلته بالمخلوق ومراحل الكشف عن نفسه . . إلخ .

وهناك مذاهب يهودية متعددة أهمها : الإصلاحية - والأرثوذكسية - والتجديدية والمحافظة .

فاليهودية الإصلاحية ، تعتبر ثمرة مباشرة لحركة الاستنارة اليهودية ولفكر منديلسون (وسوف نشير إلى هذه الحركة فيما بعد) ، حيث حاول مؤسسو هذا المذهب صياغة اليهودية بما يتلاءم مع العصر ، ووضع المعتقدات الدينية فى إطار تاريخي ، والتمييز بين ما هو مطلق منها وما هو مرتبط بزمان أو مكان معين . وقد ذهبت اليهودية الإصلاحية إلى أن الكتاب المقدس ليس من صنع الإله وإنما هو وثيقة من صنع الإنسان ونتاج وعيه التاريخي ، وأن بعض تقاليد اليهودية فقدت صلتها بالواقع ويجب تطويرها . وقد اتخذت موقفا معاديا من الصهيونية على نحو يبينه فيما بعد . أما اليهودية الأرثوذكسية ، فتعد من أهم المذاهب اليهودية فى العصر الحديث . وتعد رد فعل للتيارات الإصلاحية المشار إليها . وقد تزعم الحركة الأرثوذكسية الحاخام سيمون هيرش ، الذى انتقد اليهودية الإصلاحية واعتبرها تركز على مبادئ غير يهودية ، فالشعور - بحسب هذا المذهب - هى كلام الله ، وقد كتبها حرفا حرفا ، وقيمتها خالدة إلى الأبد ، وعلى الشعب اليهودي اتباعها والإيمان بالشريعة المكتوبة والشفوية وكل الكتب الحاخامية . وتنادى الأرثوذكسية بعدم التغيير أو التطوير ، وتدافع عن كل العقائد والأساطير القديمة ، وتعتقد فى صحتها مثل ظهور المسيح والعودة إلى فلسطين ، وأن اليهود هم شعب الله المختار الذى يجب أن يعيش منعزلا لتحقيق رسالته . وتسيطر اليهودية الأرثوذكسية على الحياة الدينية فى إسرائيل ، إذ تسيطر على دار الحاخامية الرئيسية وعلى وزارة الشؤون الدينية .

وأما اليهودية المحافظة ، فتشغل مكانا وسطا بين الأرثوذكسية والإصلاحية . فهى تأخذ بالتقاليد الحاخامية ، ولكنها تفسر الشريعة وفقا لمتطلبات الحياة الحديثة . وتتخذ موقفا إيجابيا من التطلعات القومية اليهودية وإقامة الوطن القومي اليهودي . وتختلف عن الأرثوذكسية فى معارضتها لفكرة البعث . وتقوم أهداف اليهودية المحافظة على ثلاثة مبادئ : تقوية وحدة عالمية لإسرائيل - ودوام التقاليد اليهودية - ورعاية التعليم اليهودي . ولا تقيد نفسها بعقيدة جامدة وإنما تتخذ موقفا متسامحا تجاه الممارسات الدينية لأعضائها .

وقد انبثقت منها حركة تجديدية وضع أسسها الحاخام موردخاي كابلان ، تقوم على أساس أن الدين اليهودي وجد للشعب اليهودي وليس العكس . فاليهودية حضارة يشغل الدين فيها مركزا هاما إلى جانب اللغة والقانون والآداب والفنون . فالحركة التجديدية تحاول الوصول إلى صيغة للدين تلائم أوضاع الأمريكيين الذين يعيشون في ظل حضارة علمانية براجماتية . فكابلان ينكر الوحي الإلهي ويعتبر الدين اختراعا إنسانيا وتعبيراً حضارياً عن روح الشعب ، ويقدم التراث اليهودي بدلا من تقديس الله ، ومحور الحياة اليهودية هو الشعب اليهودي . وبالرغم من اختلاف كابلان عن الصهيونيين في تأكيده على أهمية الدياسبورا (الحياة في المنفى) واستقلالها ، فإنه يتفق معها على ضرورة وجود دولة يهودية تعد بمثابة المركز للجماعات اليهودية في العالم .

وأخيرا - فإن هناك « الحسيدية » ، وهي حركة دينية صوفية بدأت في بولندا وأوكرانيا وانتشرت في شرق أوروبا حيث كان يسود البؤس والخوف حياة الجماعات اليهودية . وتقوم على أساس أفكار المزج بين الشعب والأرض والخالق وحلول الله في مخلوقاته المختلفة . وتدعو إلى محبة أرض إسرائيل وكرهية الأغيار وتعتقد في « التساديك » (الولي المقدس) . وقد عارض الحسيديون الصهيونية في بداية الأمر ، ولكنهم أصبحوا من المتشددين في المطالبة لإسرائيل بحدودها التاريخية . وقد تأثر عدد كبير من المفكرين والزعماء الصهيونيين بأفكارهم .

وعلى أية حال ، فإن من أهم المعتقدات اليهودية ، التي تعيننا في هذا المجال ، هي : أن اليهود شعب الله المختار وأنهم تلقوا وعدا إلهيا وعقدوا مع الرب تحالفا لعبادته وطاعته مقابل منحهم أرض إسرائيل ، وإعلاء شأنهم على كافة الأمم - وأن الإله سوف يبعث مسيحا من نسل داود يعيد مجد إسرائيل ويجعل لها الغلبة على الأمم .

التفسير الصهيوني للتاريخ اليهودي : (*)

يتصور الفكر الصهيوني أن يهود العالم الحديث هم ورثة أسباط إسرائيل الاثني عشر ، ويعتبرون دولة إسرائيل الحالية هي كومونلث اليهود الثالث ، ويرون أن الدعوة

(*) الدكتور عبد الوهاب المسيري : المرجع السابق

إلى العودة متصلة منذ بداية التاريخ اليهودى حتى تيودور هيرتزل مؤسس الصهيونية . ويتغاضون بذلك عن الظروف التاريخية المتغيرة . ويدافعون عن فكرة القومية اليهودية التى تستند إلى تراث تاريخى مشترك . وتتداخل فى كتابات مفكرهم مراحل التاريخ المقدس وتاريخ العبرانيين ، وتواريخ الأقليات اليهودية المشتتة فى البلاد المختلفة .

ويرى اليهود ، بوجه عام ، أن التاريخ اليهودى تاريخ مقدس تحركه الإرادة الإلهية . فإنه إسرائيل يتدخل منذ البداية فى إنشاء الأمة اليهودية ، وتطورها التاريخى منذ إبرام عهده مع إبراهيم عليه السلام ، ثم مع نسله وهو الذى مكنهم من غزو أرض وإقامة مملكتهم القديمة ، ثم أراد نفيهم وشتاتهم . كما أنه هو الذى أعادهم إلى فلسطين حيث أقاموا دولتهم . فتاريخهم خطة ربانية مسبقة وضعت قبل بدء التاريخ . ويرون أن للتاريخ هدفا واحدا هو السير نحو الزمن المسيحاني حيث يظهر المسيح الذى يعود باليهود إلى أرض الميعاد لكى يؤسسوا حكومتهم العالمية فى صهيون .

ولذا فإن التاريخ اليهودى يلغى أى تدخل إنسانى ، إذ أنه مدفوع من خارج الإرادة البشرية ، وهكذا وقفت الجاليات اليهودية فى الشتات خارج التاريخ مؤمنة بأن خلاص إسرائيل آت على يد المسيح ، وشغلت نفسها بالدراسات التلمودية دون سواها .

وقد اعتنق مفكرو الصهيونية نفس الرؤى التلمودية والقبالية المثالية . فالفيلسوف بوبر يصور تاريخ اليهود بأنه تاريخ يتدخل فيه الرب ، والأمة اليهودية أمة تحمل وحيها إلهيا عبر تاريخها المقدس ، ويتفق معه فى ذلك كان سيركين الصهيونى العمالى بشأن تداخل التاريخ المقدس مع التاريخ الإنسانى . وقد كان لهذا الأمر أثره الخطير على مواقف ساسة إسرائيل ، فالحدود التاريخية لإسرائيل هى الحدود المقدسة من نهر مصر إلى الفرات ، وهى حدود لم يصل إليها اليهود فى تاريخهم القديم ولكنها منصوب عليها فى التوراة ، ويتوقف تاريخ فلسطين عندهم منذ شتاتهم ، فهم يلغون من تاريخها ، قرونا طويلة من الزمان أصبحت خلالها بلدا عربية خالصة . وتفسر هذه النظرة الصهيونية للتاريخ اليهودى التطرف الذى تتسم بها مواقفهم حتى اليوم .

وواقع الأمر أن التاريخ اليهودى القديم هو أساسا نتاج وجود اليهود فى المنفى ، حيث جمعت الروايات بشأنه وبدأت متناقضة فى كثير من الأحيان على نحو ما أثبتته علماء الدراسات التوراتية . أما تاريخ اليهود فى الشتات ، فلم يكن تاريخا مستقلا ، وإنما كان فى كل بلد عاشوا فيها جزءا من تاريخ ذلك البلد .

الفصل الثانى

المسيحانية بين الدين والسياسة

اليهود فى الشتات :

إذا كان الميراث الدينى والتاريخى القديم لليهود قد طبعهم بطابع التعالى والشعور بالتميز بالميثاق الأبدى الذى عقده الإله معهم ، وجعل منهم شعبه المختار ووعدهم بالسيادة- فى نهاية العالم -على بقية الأمم الجوييم أو الأغيار ، فإن حياتهم فى الدياسبورا (الشتات) قد بلورت الجانب القومى من هذا التراث ، فاصبغت العقيدة الدينية بالقومية المتطرفة ، وتحولت المسيحانية الدينية إلى دعوة سياسية .

عاش اليهود المشتتون فى أنحاء الأرض منعزلين عن مجتمعاتهم داخل « الجيتو » ، رافضين على مدى القرون الطويلة الاندماج وسط الشعوب الأخرى (الجوييم) ، يمارسون طقوسهم الدينية ويدرسون التوراة والتلمود فى مدارسهم ومعابدهم الخاصة ويتبعون نظاما خاصا بهم فى المأكل والملبس .

وأحسوا بأنهم غرباء فى البلدان التى عاشوا فيها ، كما أحس سكان تلك البلاد بأن اليهود أجانب تربطهم بأبناء دينهم فى البلاد الأخرى روابط أوثق منها معهم . ولعب العداء الدينى لليهود دورا حاسما فى تحديد العلاقات بين اليهود فى البلدان المسيحية وبين بقية المواطنين . فالمسيحيون يتهمون اليهود بأنهم قتلة المسيح وأنهم يتآمرون دائما لإضعاف المسيحية والقضاء عليها ، وتثير شكوكهم تلك العزلة التى فرضها اليهود على أنفسهم داخل الجيتو وتحملهم على الاعتقاد بأنهم يعملون فى هذه الأماكن المغلقة على تدبير المؤمرات ضد بلادهم ، ويتهمونهم بأنهم يذبحون الأطفال المسيحيين قربانا لإلههم .

ويشهد التاريخ أنه حتى بداية العصر الحديث لم يتمتع اليهود بالتسامح الدينى سوى تحت حكم الإسلام سواء فى المشرق أو أسبانيا الإسلامية .

ففى الدولة الإسلامية ، شارك اليهود فى كل جوانب الحياة الاقتصادية والثقافية وتقلدوا المناصب العليا ، وكان منهم أطباء ومستشارون للأمراء . وفى الإمبراطورية العثمانية تمتعوا بحرياتهم فى ظل نظام الملة الذى يحترم الأديان .

أما تحت حكم الرومان والبيزنطيين ، فقد كان التعامل معهم يتوقف على عقيدة الحاكم ومزاجه ، وكانوا فى كل العهود رعايا لا مواطنين .

ومنذ طردهم (هم والمسلمين) من أسبانيا فى أواخر القرن الخامس عشر . تفرقوا فى بلدان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا حيث عاشت جماعات منهم فى ظل السماحة الدينية للإسلام ، وعرفت هذه الطائفة بالسيفارديم ، كما هاجر البعض إلى الدول الأوروبية ، وخاصة إيطاليا وهولندا وإنجلترا وألمانيا حيث عرفوا بالاشكنازين .

وفى شرق أوروبا ، كانت بعض قبائل التار قد اعتنقت الدين اليهودى وعرفوا بيهود الخزر ، وبعد سقوط مملكة الخزر ، انتشر عدد منهم فى منطقة القرم . وأصبحت بولندا دولة المهجر الرئيسية ، حيث قدر عددهم فيها عام ١٦٥٠ بحوالى نصف المليون ، وكانوا يتمتعون فيها بقسط وافر من الحكم الذاتى إلى أن أعملت فيهم جيوش شمبليتشكى الأوكرانى المذابح ودمروا جالياتهم فى عام ١٦٥٨ ، ثم تزايد عدد اليهود فى روسيا نتيجة وقوع بولندا تحت حكم قيصرها .

وفى عام ١٦٤٨ ، عقد صلح وستفاليا الذى أرسى نظام الدولة الأممية الحديثة ، ورفضت الدول الأوروبية منح اليهود صفة المواطنين فيها . وأصبح اليهود أكثر عزلة فى الدول الحديثة التى طبقت مبدأ وجود دين واحد شرعى فى الدولة ، كما أدت حركة الإصلاح البروتستانتى - المتأثرة بالأفكار اليهودية - إلى ازدياد نفعة الكنيسة الكاثوليكية عليهم ، فأعادهم البابا بول الرابع إلى الجيتو ، وألزمهم بلبس شريط أصفر تميزاً لهم ، وضيق خلفاؤه من نشاطهم التجارى .

وظلت أوضاع الجاليات اليهودية فى الدول الأوروبية بهذه الحال طوال العصور الوسطى وحتى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، عندما نشطت الحركات الفكرية المطالبة بالمساواة فى الحقوق ، وأسهم اليهود بقسط وافر فى حركة التنوير وفى الثورة الفرنسية .

اندماج اليهود فى الدول الغربية :

بدأت أحوال اليهود فى أوروبا فى التحسن فى القرن الثامن عشر ، وفى عام ١٧٨١ أعفوا من وضع الشريط المميز الذى كان عليهم ارتداؤه ، وأصدر جوزيف الثانى حاكم الامبراطورية الرومانية المقدسة مرسوما يمنح اليهود حرية التجارة والصناعة ، ويعطيهم الحق فى إرسال أبنائهم إلى مدارس الدولة ، كما يسمح بتجنيدهم فى الجيش الإمبراطورى .

وقد تبنت الثورة الفرنسية الأفكار الليبرالية ، وأصدرت إعلان حقوق الإنسان والمواطن الذى يسوى بين المواطنين دون اعتبار لمعتقداتهم الدينية . وفى عام ١٨٠٧ . دعا نابليون بونابرت الساندرين اليهودى - الذى يمثل كل يهود العالم - للانعقاد للمرة الأولى منذ هدم الرومان للهيكل . وقد قرر الساندرين أن اليهود ليسوا أمة ، وأن اليهودية ديانة .

وفى الفترة من ١٨٠٨ حتى ١٨١٢ ، كانت الأسس قد وضعت فى بروسيا للاعتراف لليهود بالمساواة القانونية .

وأصدر مؤتمر فيينا الذى عقد لترتيب الأوضاع فى أوروبا عقب هزيمة نابليون بونابرت ، قرارا يطالب الدول الألمانية بتحسين أحوال اليهود ، حيث كان عدد كبير من المفكرين الألمان فى ذلك الوقت يرون اليهود أجنب لا يمكن إدراجهم فى الحياة الثقافية الألمانية . وفى عام ١٨٦٩ أصدر برلمان اتحاد شمال ألمانيا قرارا بإلغاء القيود التى كانت موضوعة على اليهود فى مسائل الزواج والمهن والإقامة ، واعتبارهم مواطنين لهم كل حقوق المواطنة .

وبدأت ما تعرف بحركة التنوير اليهودى (هاسكالا) فى أواخر القرن الثامن عشر ، والتى ترجع جذورها إلى القرن السابق فى هولندا حيث حاول عدد من المفكرين اليهود تطويع المعتقدات اليهودية للتقدم العلمى . فقد انتعشت الجالية اليهودية فى هولندا مع قدوم اليهود الأسبان بثرواتهم ، وأصبحت مركزاً لتعليم التوراة والنشر بالعبرية . وبرز من هؤلاء المفكرين اسبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧) ، الذى كتب نقدا للتوراة معتبرا إياها مصدرا تاريخيا غير سليم ، ومشككا فى الأحداث التى تضمنتها أسفارها .

وكان لموسى مندلسون (١٧٢٩ - ١٧٨٦) - من بعده - أثر كبير على الفكر اليهودى . فقد كتب فى مؤلفه « أورشلیم » مطالبا بالفصل بين الدولة والدين ، وذكرا أن للشعب اليهودى مهمة فريدة هى إبلاغ بقية البشر بمعتقداته الدينية عن الله وصفاته ، والملاءمة بين هذه المعتقدات والحضارة الغربية . وقام بترجمة الأسفار الخمسة الأولى من التوراة إلى الألمانية . وتأثير كتاباته أنشئت فى برلين عام ١٧٨١ مدرسة للتعليم الدينى والعلمانى معا ، وتبعه فى اعتناق أفكاره عدد من المفكرين اليهود (المسمين الماسكيليم) ، الذين أخذوا يناقشون المعتقدات اليهودية القديمة ، وينتقدون الآراء القائلة بأن اليهود يشكلون أمة ، وأنها ليست مجرد ديانة ، ويعتبرون دولة اليهود قد زالت منذ ألفى عام ولا سبيل إلى إحيائها ، بل إن كثيرين منهم اعتنقوا الديانة المسيحية . وازدهرت فى برلين بورجوازية يهودية غنية خالطت الأرستقراطية الألمانية وشاركت فى صالوناتها الأدبية ، وانتشرت فى الجالية اليهودية الزيجات المختلطة ، واعتنق أربعة من أبناء مندلسون المسيحية . وبالرغم من أن (الماسكيليم) ناقشوا فكرة إقامة وطن يهودى ، فإن مندلسون كان يرى أنها فكرة غير واقعية ولا تتحقق إلا إذا قامت حرب أوربية عظمى .

وقد أدت أفكار مندلسون إلى قيام حركة إصلاحية يهودية فى ألمانيا وأنشئ معبد إصلاحى فى هامبورج عام ١٨١٨ ، له كتابه الخاص للصلوات الذى يستبعد الأجزاء الخاصة بالعودة إلى صهيون وقدم المسيح ، ولكن اليهود الأرثوذكس لجأوا إلى السلطات الألمانية لإغلاقه ، فأغلق عام ١٨٢٣ ومع ذلك ، فقد تأثر عدد من الحاخامات بالفكر الإصلاحى من أمثال ليوبولد زونز (١٧٩٤ - ١٨٨٦) ، الذى دعا إلى دراسة الديانة اليهودية دون فكر مسبق وعدم اعتبارها حقائق ثابتة . وعقد فى عام ١٨٣٨ أول مؤتمر إصلاحى وضع أسس المذهب الإصلاحى . كما عقدت ندوة فى برسلاو عام ١٨٥٤ ، وأخرى فى المعجر عام ١٨٦٧ ، وأنشئت مدرسة فى برلين عام ١٨٧٢ .

وبالرغم من أن الفكر الإصلاحى لم يعجب اليهود المتدينين (الأرثوذكس) ، فقد أصبح اندماج اليهود فى ألمانيا وغيرها من الدول الغربية حقيقة ملموسة . وعبر عن ذلك جابريل ريزر قائلا « إن من ينازعنى حقى فى وطنى الألمانى ، إنما ينازعنى الحق فى أفكارى ومشاعرى واللغة التى أتكلمها والهواء الذى استنشقه ، بل يحرمنى من حقى فى الوجود » .

وقد تولى اليهود مهناً كانوا مبعدين عنها ، ومنها مهنتا الصحافة والنشر ، فأصبحت لهم صحفهم (ومنها سولاميت) وظهر من بينهم المفكرون والكتاب .

وحصل اليهود فى ألمانيا والامبراطورية النمساوية المجرية وإيطاليا واسكندنافيا على المساواة القانونية . وتميزت أوضاعهم فى الثلث الثانى من القرن التاسع عشر بالتقدم السياسى والاجتماعى والثقافى ، وازدهرت أماكن العبادة اليهودية ، وأنشئ الاتحاد الإسرائيلى العالمى فى باريس عام ١٨٦٠ ، والجمعية الإنجليزية اليهودية فى لندن عام ١٨٧٠ ، إلى جانب جمعيات مماثلة فى ألمانيا وروسيا .

وكان انصهار اليهود فى مجتمعات إيطاليا وفرنسا وإنجلترا أبعد مدى منه فى ألمانيا التى بدأت اتجاهات معادية للسامية فى الظهور فيها فى أواخر القرن التاسع عشر . ويرجع كونور أوبراين(*) التيارات المعادية لليهود إلى عاملين : أحدهما دينى مسيحى والآخر وطنى . أما العامل الأول ، فيرجع إلى التقاليد المسيحية القائلة بأن اليهود شعب ملعون بسبب إنكاره للمسيح وصلبه ، وقد زاد عليه اتهامهم بترويح أفكار التنوير التى أدت إلى إضعاف العقيدة المسيحية . وأما العامل الثانى ، فهو اتهام اليهود بأنهم شعب عالمى لا ينتمى إلى دول معينة ، وفى حين كان العامل الوطنى السبب الرئيسى لانتشار العداء لليهود فى ألمانيا بوجه خاص بسبب نمو الحركة القومية الألمانية ، فإن العامل الدينى كان سبب انتشاره فى بقية دول غرب ووسط أوروبا .

ومما أجمع تلك الحركات المعادية للسامية تدفق أعداد كبيرة من يهود روسيا وبولندا على تلك الدول - نتيجة الاضطهادات التى تعرضوا لها فيها - الأمر الذى أعطى تلك الحركات الطابع السياسى وأصبح لها مفكروها من أمثال يوجين دورنج وفردريش نيتشة .

وقد بلغ العداء للسامية فى ألمانيا ذروته منذ وصول هتلر إلى السلطة ، حيث يقدر اليهود عدد من قضى عليهم بحوالى ستة ملايين يهودى ، الأمر الذى كان له أثره الحاسم فى إقامة دولة إسرائيل .

أما فى الولايات المتحدة ، فقد تدفق عليها اليهود منذ عام ١٨٤٠ وسادت فيها اليهودية الإصلاحية ، وبرز من بين الحاخامات فيها صمويل هيرش (١٨١٥ - ١٨٨٩) وإليزاك وايز (١٨١٩ - ١٩٠٠) الذى عقد مؤتمراً للحاخامات فى فيلادلفيا عام ١٨٦٩ ، وأنشأ الاتحاد الأمريكى العبرانى (UAHC) ، وكلية الاتحاد العبرانى .

(*) Conor Cruise O'Brien : The Siege (Weiden and Nicolson - London, 1986).

ووضع برنامج بتسبورج أسس المذهب الإصلاحى الأمريكى ، واستبعدت التعاليم الدينية التقليدية الخاصة بالطهارة والزى ، كما استبعدت أفكار ظهور المسيح .

واندمج اليهود فى المجتمع الأمريكى اندماجا كاملا ، متمتعين بكافة الحقوق والحريات فى مساواة تامة مع بقية أفراد الشعب ، وانتشرت دور عبادتهم ومدارسهم وصحفهم ، وأصبح نفوذهم قويا بحيث يعتبر اللوى اليهودى فى الولايات المتحدة أنشط جماعات الضغط على الإدارة الأمريكية والكونجوس . ولا تزال الولايات المتحدة هى الحليف الأول لإسرائيل ، تزودها بأكبر المعونات الخارجية وتدعمها سياسيا واقتصاديا وعسكريا .

اليهود فى شرق أوروبا :

كانت الأوضاع فى روسيا ودول شرق أوروبا تختلف عنها فى دول أوروبا الغربية . ففي أعقاب هزيمة القوات الروسية أمام قوات نابليون فى معركة أسترلتز فى ديسمبر ١٨٠٥ ، وعلى أثر اجتماع الساندرين اليهودى فى باريس ، أعلن المجمع الأرثوذكسى « السينود » استهجانا لمحاولة نابليون توحيد اليهود الذين شتهم الغضب الإلهى فى العالم بأسره . . والمناداة بمسيح مزيف فى شخص نابليون . وكان نابليون قد وجه من عكا فى إبريل ١٧٩٩ ، خلال حملته فى فلسطين نداء إلى اليهود يدعوهم فيه إلى العودة إلى فلسطين ليصبحوا أسيادها الحقيقيين .

كان معظم يهود شرق أوروبا من الاشكيناز ، الذين كانوا يعيشون فى القرون الوسطى فى ألمانيا ، ثم انتشروا فى القرن الحادى عشر فى انجلترا وفرنسا وهولندا وسويسرا وشمال إيطاليا . وبعد طردهم من تلك البلاد توجهوا شرقا إلى ألمانيا والنمسا وبولندا . وعرف الاشكيناز بالتمسك بالتعاليم التلمودية والشرعية اليهودية والتقوى . وكان حكام بولندا وليتوانيا يعاملونهم بتسامح ، وتمتعوا بنوع من الحكم الذاتى فى السنوات من ١٥٥٠ حتى ١٧٦٤ ، كان لهم مجلس يدير حياتهم « مجلس الأقاليم الأربعة » ، وكانوا يتكلمون لغة اليديش ، ويجلس المحاكمات فى محاكمهم كما كانت لهم معاهدتهم التلمودية . وفى عام ١٦٤٨ ، قام القوزاق بقيادة شمبلنكى بثورة ضد الحكم البولندى وقتلوا الآلاف من اليهود ، واستعانوا بحلفائهم الروس الذين غزوا شمال غرب بولندا وأوكرانيا ، الأمر الذى أدى إلى مزيد من أعمال الانتقام ضد

اليهود الذين اتهموا بتشجيع الغزاة . ومرة أخرى ، غزا القوزاق أوكرانيا (١٧٣٠ - ١٧٤٠) وأعملوا القتل والنهب في الجالية اليهودية .

وفي عهد ألكسندر الأول ، ساد بين الروس الاعتقاد بأن اليهود أعداء للأمة الروسية ، وتضاعف العداء لهم بعد مقتل الكسندر الثاني لاتهامهم بالتورط في قتله . وأخذ العداء لليهود مظهر الغارات الانتقامية pogroms التي دأبت الجماهير على شنّها على الأحياء التي يعيش فيها (الجيتو) وإعمال القتل والنهب فيهم . وكان اليهود يعيشون فيما تسمى شتيتل shtetl وهي مدن صغيرة يشكل اليهود أغلبية سكانها ، سواء في روسيا أو بولندا ولتوانيا وبقية بلدان أوروبا الشرقية . وكان لهذه المدن طابعها الخاص ، حيث كان بكل منها سيناجوج يتجمع فيه اليهود للصلاة ودراسة التوراة . وكانت الحياة تجمع بينهم في شبه عزلة جماعية .

وقد توقفت الغارات الانتقامية ضد اليهود عام ١٨٨٤ لمدة عشرين عاما ، ولكنها استؤنفت من جديد ، وكان من أفظعها غارة « كيشينيف » التي قتل فيها ٤٥ يهودياً . وفي أكتوبر ١٩٠٥ ، ارتفع عدد القتلى إلى ٨١٠ يهودي . وقد اختلفت ردود الفعل لدى اليهود ، فمنهم من اتجه إلى الهجرة إلى الغرب ، ومنهم قلة رأت الهجرة إلى فلسطين ومن الآخرين شكلت حركة أحباء صهيون التي بدأت أولى عمليات الاستيطان في الأراضي الفلسطينية ، وحركة بيلو .

ويصف والترلاكير في كتابه عن تاريخ الصهيونية (*) ، الأوضاع في روسيا وبولندا ودول شرق أوروبا في القرن التاسع عشر ، فيذكر أن أكثر من خمسة ملايين يهودي كانوا يعيشون في أواخر ذلك القرن في روسيا ، وكان حوالي ١٦ - ١٨ ٪ من سكان وارسو وجرودتو وفيسك ، كما كانت غالبية سكان فيلنا وبرست ليتوفسك وبعض المدن الأخرى من اليهود ، وبلغ عددهم في وارسو ٢٠٠ ألف وفي أوروبا ١٤٠ ألف . وقد كانت أوضاعهم الاقتصادية سيئة وأخذت في التدهور منذ ١٨٨٠ ، إذ كانت غالبية سكان تجمع المستوطنات اليهودية pale of settlement بدون عمل ، حيث حرمت عليهم مهن معينة ومنها الوظائف الحكومية . كما أصبحت الغارات العدائية ضد الجيتو اليهودي منذ ١٨٨١ ظاهرة متكررة ، حيث كانت الغوغاء تهاجم الجيتو

(*) Walter Laqueur : A History of Zionism.

وتعمل القتل والضرب والتخريب فيه . وقد كانت الحكومة القيصريّة متهمّة بتشجيع هذه الغارات بقصد إرضاء الجماهير الذين كان عداؤهم للسامية متأصلا فيهم ، والواقع أن تلك الحكومة لم تكن لها سياسة واضحة أو ثابتة تجاه اليهود . وقد قدر عدد من هاجروا منهم خلال السنوات الخمسة عشر السابقة على الحرب العالمية الأولى بحوالى ١٣ مليون .

وأما عن حياة اليهود الفكرية فى تلك المناطق ، فقد سادتها الأفكار الحسيدية Hassidism - وهى حركة فلسفية غيبية تستند إلى العواطف الدينية ، وبها عناصر قوية من المسيحية ، ومنذ أواسط القرن التاسع عشر انتشرت عقيدة الصاديقية zadikim القائمة على أساس فكرة الزعماء المقدسين ، والمعتبرين وسطاء بين الإله والعالم . وقد أدت الحروب بين الحسيديين ومعارضيههم إلى انقسام اليمين اليهودى ، واتجه المثقفون إلى حركة التنوير ، وأدى ذلك إلى إثارة غضب الحاخامات الأرثوذكس والجماهير المتدينة . كما انجذب البعض إلى الثقافة الروسية والاندماج فى الحياة الروسية . وأخيرا بدأت دعوة القومية اليهودية تنتشر ، والكتابات والقصائد الشعرية تدعو إلى صحوة إسرائيل ويهودا . وأدت السياسة المعادية لليهود التى اتبعها ألكسندر الثالث والغارات العدائية إلى توقف الاتجاه إلى الاندماج فى المجتمع الروسى ، وانضمام الشباب اليهودى إلى المنظمات الثورية . وفى عام ١٨٧٠ نشر كتاب يطالب بإقامة دولة يهودية فى فلسطين تحت السيادة البريطانية ، وثار الخلاف بين أنصار الهجرة إلى فلسطين والمنادين بالهجرة إلى أمريكا ، ولكن مالبت الفكر الصهيونى أن تبلور فى إقامة دولة لليهود فى فلسطين .

ولكن الثورة البلشفية - التى كان عدد كبير من زعمائها من اليهود - أنهت النظام القيصرى ، وأقامت نظاما شيوعيا يسوّى بين المواطنين فى الحقوق ولا يعترف بأى دور للأديان .

أما بولندا ، فقد أصبحت فى القرن السابع عشر دولة المهجر الرئيسية لليهود ، وقدر عددهم فيها عام ١٦٥٠ بحوالى نصف مليون نسمة ، وكانوا يتمتعون بقسط وافر من الحكم الذاتى يمارسونه عن طريق مجلس شبيه بالبرلمان يتولى إصدار مراسيم تطبق فى أنحاء المملكة ، ويؤدون شعائهم الدينية ويقومون بدراساتهم التلمودية بحرية ، إلى أن دمرت جاليتهم على أيدى جيوش شمبلىكى الأوكرانى عام ١٦٥٨ . ومع ذلك ، فقد بقيت مدارسهم الحاخامية تعمل على ترويح الآمال

المسيحانية بين اليهود ، وأدت التقلبات السياسية فى القرن الثامن عشر إلى تفتيت بولندا بين روسيا وبروسيا والنمسا ووقع الجزء الأكبر منها تحت حكم القياصرة الروس ونفوذ الكنيسة الأرثوذكسية التى كانت تناصب اليهود العداء الأكبر .

فى هذه الظروف السياسية والفكرية المضطربة ، وفى أوضاع سادها عداء الحكومات والجماهير لليهود ، وانتشار الحركات الثورية المعادية للحكم ، عاش زعماء إسرائيل .

ولاشك أن الحياة فى تلك المنطقة وفى الظروف التى كانت سائدة فيها فى القرن التاسع عشر قد شكّلت شخصيات هؤلاء الزعماء ، وكونت أمزجتهم وأفكارهم . ولد حاييم وايزمان فى بلدة موتيله بروسيا البيضاء عام ١٨٧٤ ، حيث كانت تقيم مائتا عائلة يهودية فى تلك البلدة المعزولة عن العالم الخارجى . وهو يروى فى مذكراته مدى إحساسه بالغربة وانعدام الأمن ، ويذكر أن التقاليد اليهودية كانت تسود عائلته « وكانت أرض إسرائيل هى مركز كل عاداتنا وهى التى تملأ حياتنا » ، ثم قضى سبع سنوات فى بينسك حيث كانت لحركة أحباء صهيون جذور عميقة وجهت تفكيره نحو الصهيونية إلى أن أحدثت دعوة تيودور هيرتزل إلى إقامة دولة اليهود أثرها البالغ فى حياته .

أما دافيد بن جوريون ، فقد ولد فى مدينة بلونسك فى بولندا عام ١٨٨٦ ، وكانت مختلف التيارات اليهودية تتصارع حول ما يجب عمله لتغيير الأوضاع القمعية التى يعيش اليهود تحت وطأتها ، وخاصة التيارات الدينية والصهيونية ، وما يثور من خلافات بين أتباع « البوند » (وهو حزب اشتراكى روسى يهودى أسس عام ١٨٩٧) وبين الصهيونيين . وأنشأ مع زملائه رابطة عزرا لتعليم اللغة العبرية ، وجعلها لغة التحدث بين اليهود ، وتأثر من كتابات بياليك التى تثير الغضب والألم من أحوال الشعب اليهودى وتدعو إلى تغييره ، وكتابات إبراهيم مابو عن محبة صهيون وأرض إسرائيل . وسافر إلى فلسطين عام ١٩٠٦ وهو يحمل أفكاره الصهيونية والاشتراكية ، مع ذكريات القمع الروسى ، ليوصل نشاطه السياسى فى إقامة الصهيونية العمالية ، ويصبح مؤسس الدولة اليهودية فيها .

وولد فلاديمير جابوتنسكى فى أوديسا بروسيا عام ١٨٨٠ ، وسجن عام ١٩٠١ بسبب الاشتباه فى نشاطه الاشتراكى . وتأثر بالغارات العدائية ضد اليهود عقب ما عرف بمذبحة كيشينيف عام ١٩٠٣ ، وما لبث أن أصبح داعية صهيونيا ميالا إلى

العنف والتطرف ومتشربا بالروح العسكرية إلى أن أصبح مؤسس حركة الصهيونية التصحيحية التي عارضت ما اعتبرته سياسات معتدلة من قبل الحركة الصهيونية العالمية .

كما ولد تلميذه ميناحيم بيجين في برست ليتوفسك بروسيا عام ١٩١٣ ، وانخرط منذ طفولته في حركة هاشومير هاتزا غير ثم إلى حركة بيطار للشباب اليهودي التي أسسها جابوتنسكي ، ومارس نشاطه السياسي في بولندا . وفي فلسطين ، تعارض مزاجه المتطرف مع مزاج بن جوريون ، وظل مستبعداً هو وحزبه « حيروت » من المشاركة في السلطة إلى أن تمكن من تولي الحكم عام ١٩٧٧ .

وأخيرا ، فإن اسحق شامير قد ولد هو الآخر في بولندا عام ١٩١٥ ، وانضم إلى حركة بيطار ثم هاجر إلى فلسطين عام ١٩٣٥ ، وبرز في منظمته إيرجون وليحي الإرهابيين ، وعمل في المخابرات اليهودية « الموساد » ، وانضم إلى حزب حيروت اليميني .

الصهيونية وعداء السامية :

ينطلق الفكر الصهيوني من مفهوم محدد هو أن العداء للسامية حقيقة موضوعية ، وأن اندماج اليهود في مجتمعات الدول أمر مستحيل ، ولذا فإن الحل الوحيد للمسألة اليهودية هو عودة اليهود إلى « أرض إسرائيل » وإقامة دولتهم فيها ، والسبيل إلى ذلك هو هجرة يهود الشتات (أو المنفى) إلى فلسطين .

وتختلف تفسيرات المفكرين الصهيونيين لظاهرة معاداة السامية ، فهم يرجعونها إلى كراهية الأغيار لليهود بسبب قوتهم الاقتصادية ، أو للأسباب الدينية (اتهام المسيحيين لهم بقتل المسيح) ، أو حتى لمجرد الكراهية .

وتزخر كتابات هؤلاء المفكرين بدم الحياة اليهودية في المنفى ، التي - على حد تعبير نحمين سيركين - خلقت نوعا من عدم الاتزان في شخصية اليهودي .

ويصف بن جوريون الحياة في الدياسبورا (المنفى) بأن « اليهود يعيشون كأقلية تعتمد بشكل أو بآخر على إرادة الأغلبية ، عاجزين عن اتخاذ أى قرار . كما يعيشون حياة اقتصادية هامشية ، فلا تجد بينهم عمالا ولا فلاحين ، بل يشغل معظمهم في

المدن بعيدا عن المراكز الحيوية فى أية حضارة . وقد صرح ذات مرة بأنه لو كان الأمر بيده لأرسل بعض الشباب اليهودى متنكرين ليرسموا الصليبان المعقوفة على المعابد اليهودية حتى يلقوا الرعب فى نفوس اليهود ليهاجروا إلى أرض الميعاد .

وقد بلغ العداء للسامية ذروته فى ألمانيا النازية ، حيث سادت أفكار نقاء الجنس الأرى ، ويقدر اليهود عدد من قضى عليهم على يد هتلر - فيما سمي بالهولوكست - خلال الفترة من ١٩٣٣ حتى ١٩٤٥ بست ملايين يهودى . وقد حاولت الحركة الصهيونية إنقاذ يهود ألمانيا ، وعقدت اتفاقا مع حكومتها النازية لتسهيل هجرتهم إلى فلسطين وتحويل مدخراتهم من ألمانيا فى شكل بضائع ألمانية تباع فى فلسطين . كما تمكن جابوتنسكى من عقد اتفاق مع حكومة سيمجلى ريدز البولندية حول برنامج للهجرة المكثفة لليهود على مدى عشر سنوات ، ونجح فى إدخال ١٥ ألفا إلى فلسطين بطريقة غير مشروعة . والواقع أن اضطهاد ومذابح النازية لليهود مع عجز الحلفاء عن إنقاذهم كان لهما أكبر الأثر فى إقامة دولة إسرائيل ، ووصول الآلاف من المهاجرين إليها عقب إنشائها .

ومن ناحية أخرى ، فلا شك أن ذكريات الهولوكوست ، التى تحرص الصهيونية على إبقائها حية فى نفوس الإسرائيليين ، تفسر المواقف المتطرفة لكثير من سياسة إسرائيل ، ومبالغتهم الشديدة فى كل ما يتعلق بأمن دولتهم وتضخيمهم للأخطار - التى يتخيلونها - من جانب الدول العربية ، بالرغم من تفوق إسرائيل الحربى الذى تكفله لها الولايات المتحدة ، وعلى الرغم من ترسانتها النووية ، وإن كانت الاعتبارات الأمنية كثيرا ما تستخدم ذريعة للتوسع الإسرائيلى والرغبة فى الهيمنة .

الصهيونيون الأوائل :

دعا موسى هيس (١٨١٢ - ١٨٧٥) فى كتابه « روما والقدس » الشعب اليهودى إلى الاقتداء بالتجربة الإيطالية ، وإقامة دولة لهم فى القدس ، فهم - على حد قوله - ليسوا جماعة دينية ، وإنما هم أمة منفصلة وجنس خاص . واليهودى الذى ينكر ذلك ليس كافرا ومرتداً دينيا فحسب ، بل هو أيضا خائن لشعبه وقبيلته وجنسه .

وفى سبتمبر ١٨٨٢ ، نشر ليون بنسكر (١٨٢١ - ١٨٩١) كتابه التحرر الذاتى Autoemancipation ، والذى ذهب فيه إلى أن اندماج اليهود فى مجتمعاتهم ما هو إلا

من قبيل الأوهام ، فسوف يظل اليهود دائما أجنب في هذه المجتمعات . ودعا بدوره اليهود إلى أن تكون لهم قاعدة إقليمية يقيمون عليها دولة لهم . ولم يقترح بنسكر أن تكون تلك القاعدة الإقليمية هي فلسطين بالذات .

أما موسى ليلينبلوم ، وبيريتس سمولينسكين وآخرين ، فقد دعوا إلى أن تكون إقامة الدولة اليهودية في فلسطين .

ولم تكن هذه الأفكار تلقى قبولا لدى جماهير اليهود في ذلك الوقت ، ولكن فريقا الحاخامات الأرثوذكسي وجد التفسير الديني لهذه الصهيونية السياسية ، ومن هؤلاء من يهودا ألكلاي (١٧٩٨-١٨٧٨) الذي أفتى بأن « المسيح المخلص ابن داود سوف يسبق ظهوره مسيح آخر يدعى ابن يوسف ويقوم بغزو أرض إسرائيل » . أما ابن يوسف هذا - فإنه بحسب تفسيره - يرمز لعملية مفادها ظهور قيادة سياسية بين اليهود تقوم بالتمهيد لعملية الخلاص . وعلى اليهود أن يتحدوا وينظموا أنفسهم ويختاروا قادتهم ويغادروا مناهم . كما أن من هؤلاء الحاخامات الأرثوذكس ابراهيم إيزاك كوك الذي أصبح كبير حاخامات فلسطين تحت الانتداب . وأفتى الحاخام هيرش كاليشر (١٧٩٥-١٨٧٤) هو الآخر بأن المسيح لن يظهر قبل أن يتجمع جزء كبير من الشعب اليهودي في أرض إسرائيل .

وقد سبقت الصهيونية السياسية حركة صهيونية ذات طابع عملي تدعو اليهود إلى الهجرة إلى فلسطين واستيطانها . وقد قادت هذه الحركة جماعة أجباء صهيون التي بدأت عام ١٨٨١ بإرسال أول فوج من المهاجرين اليهود الذين استوطنوا الأراضي الفلسطينية . ولكن ظل تأثير دعاة الصهيونية الأوائل محدوداً إلى أن ظهر كتاب « دولة اليهود » الذي أصدره تيودور هيرتزل عام ١٨٩٦ ، متأثراً من محاكمة الضابط الفرنسي اليهودي دريفوس . فقد انتهى تفكير هيرتزل إلى أن هذه المحاكمة الظالمة وما أحاطت بها من مشاعر العداء لليهود تدل على أن اندماج اليهود في مجتمعات الدول المختلفة لن يحل المشكلة اليهودية ، وإنما الحل الوحيد لها هو إقامة دولة لليهود بموافقة الدول الكبرى . والغريب أن هيرتزل ظل حتى ذلك الوقت مؤمناً بأن على اليهود الاندماج في المجتمعات التي يعيشون فيها ، حتى إنه كتب في عام ١٨٩٤ نقداً لمسرحية لألكسندر دوما يقول فيها أحد الأبطال اليهود إن على اليهود العودة إلى أرض إسرائيل ، ورفض في نقده هذا الحل على أساس أن اليهود ليسوا شعباً واحداً ، وإنما

هم مجموعات مختلفة قد تأثرت بالثقافات والقوميات المتعددة ، وقد كانت المشكلة الاجتماعية هي التي تشغل تفكيره خلال عمله في باريس مراسلاً لإحدى الصحف النمساوية في الفترة من ١٨٩١ حتى ١٨٩٥ ، حيث كانت القلة تعيش حياة بذخ وترف في حين كانت جماهير الشعب تعاني من الفاقة ، وكانت المشكلة اليهودية ، بالنسبة إليه ، مشكلة ذات طابع اجتماعي وإنساني يمكن حلها مع التطور التدريجي للمجتمعات .

وكان الحل الذي اقترحه هيرتزل للمشكلة اليهودية بإقامة دولة اليهود يصطدم مع الاتجاه الغالب - وخاصة في الدول الغربية والولايات المتحدة - لاندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها مستفيدين من مبادئ المساواة التي سادت هذه المجتمعات ، ثم إن فلسطين في ذلك الوقت كانت جزءاً من الامبراطورية العثمانية ، ولم يكن لسلطانها أن يفرض فيها ، وكانت للدول الأوروبية الاستعمارية مطامعها في ذلك الجزء ذي الموقع الاستراتيجي الهام ، كما كانت غالبية اليهود المتدينين يرون التسليم بالإرادة الإلهية والصبر على المنفى انتظاراً لظهور المسيح المخلص ويرفضون الدعوة الصهيونية باعتبارها تدخلاً في مشيئة الرب . والأخطر من كل ذلك هو أن فلسطين لم تكن أرضاً بلا شعب بل كانت تعيش فيها أمة لها تاريخها وثقافتها وتحتل الوقت المناسب للتخلص من نير الحكم العثماني .

الصهيونية واليهودية :

حرص زعماء الحركة الصهيونية على تأكيد الطابع السياسي العلماني لحركتهم ، ونفى الطابع الديني عنها . فقد كان اهتمام تيودور هيرتزل يتركز على العوامل المناخية والجغرافية الملائمة لإقامة الدولة اليهودية . ولما سأله فيكتور عمانويل ملك إيطاليا عما إذا كان يتوقع ظهور المسيح ، أجابه بأن الدوائر الدينية تتوقع ذلك ، أما هو وغيره من المفكرين الأكاديميين والمتنورين فلا يدينون بهذه الأفكار . وقد حرص هيرتزل خلال زيارته لفلسطين أن يخالف علناً التعاليم الدينية اليهودية . وكان لا يمانع في أن تقام الدولة اليهودية في أوغندا أو غيرها ، كما كان ليوبنسكي يرى إمكان إقامتها في أمريكا الشمالية أو تركيا الآسيوية . كذلك كان حايم وايزمان ودافيد بن جوريون وغيرهما من زعماء الصهيونية علمانيين في تفكيرهم ، بل كان بينهم الملحدون .

وكان المستوطنون الأوائل يفضلون أن يسموا بالعبرانيين لا اليهود ، ولجأ بعضهم في تحد واضح للمتدينين إلى أكل لحم الخنزير المحرم عند حائط المبكى ومع ذلك ، فلاشك في أن هيرتزل وغيره من زعماء الحركة كانوا متأثرين بالتراث الدينى اليهودى . وقد سبقت الإشارة إلى أنه تراث مصطبغ بالصبغة القومية . بما فى ذلك عودة اليهود إلى أرض إسرائيل .

ويذكر الدكتور عبد الوهاب المسيرى (*) أن هيرتزل ربما كان يتوهم أن له بعض صفات النبوة ، فهذا أمر غير مستبعد بالنسبة لفرد ينتمى لأمة الكهنة والأنبياء . فهو يحكى عن نفسه أن المسيح أتاه مرة فى حلمه وطار به فالتقيا بموسى عليه السلام الذى قال له لقد صليت من أجل هذا الصبى كما قال لهيرتزل « اذهب فإنى سأحضر فى القريب وسأتى بعجائب كثيرة وأفعال عظيمة لشعبى والعالم بأسره » . ويذكر هيرتزل فى مناسبة أخرى « شعارنا هو فلسطين داود وسليمان » .

« وقد كان يتحرك من مكان إلى مكان حاملا على كتفيه يهوديته وفى عقله آلاف الأساطير اليهودية ، خاصة أسطورة العودة ، وأسطورة الأمة المرتبطة بالأرض رغم شتات آلاف السنين ، فالأسطورة تسيطر عليه تماما وتظهر بين سطور كتاباته وفى كلماته وأحاديثه ، فهو مثل كل صهيونى يعتقد أن له علاقة ميتافيزاقية بأرض الميعاد يحملها فى قلبه أينما سار ، ولهذا فهو دائم الحنين إلى العودة » .

كما كان بن جوريون مثل هيرتزل يؤمن أن الدولة اليهودية توجد أساسا فى قلوب الناس ، ومن حق اليهود المطالبة بفلسطين لأنهم يحلمون بها فى منقاهم ، أما العرب فلا يحق لهم المطالبة بأسبانيا لأنهم كفوا عن الحلم بها . وهو يرى أن الفكرة المسيحانية تمتد بجذورها فى وعى الشعب اليهودى ، ولا يمكن فهم مسار التاريخ اليهودى الحديث دون أخذها فى الحسبان ، ولا يهم . فى رأيه . إن كانت قصة الوعد الإلهى لإبراهيم تسجيلا حقيقيا لحادثة تاريخية أم لا ، فالمهم هو أن اليهود اعتقدوا صدقها منذ آلاف السنين (*) .

(*) Abdel Wahab Elmessiri · The Land of Promise.

(*) الدكتور عبد الوهاب المسيرى : اليهودية والصهيونية وإسرائيل .

ومع ذلك ، فإن الدعوة الصهيونية إلى عودة اليهود إلى أرض الميعاد ، بفعل البشر وقبل ظهور المسيح ، قد اصطدمت بالمفاهيم الدينية اليهودية ، قوبلت بمعارضة شديدة من قبل اليهودية الأرثوذكسية التي كانت ترى أن الصهيونيين يريدون عكس مسار التاريخ اليهودي ، وخلص الشعب بفعل القدرة الإنسانية في حين أن أحوال اليهود في الشتاتهم وما يقاسونه من مصائب إنما هي من قضاء الله ، وأن السعى لتبديلها من دون أمر إلهي هو من قبيل الكفر . فاليهود ملتزمون دينيا بانتظار الخلاص على يدي المسيح وعليهم التسليم بالقضاء الإلهي والصبر عليه .

وقد دعا سامسون هيرش - أحد كبار القادة الروحيين الألمان - اليهود إلى الصلاة من أجل العودة إلى أرض إسرائيل ، ولكنه اعتبر العمل من أجل التعجيل بالخلاص معصية كبيرة . وانضم إليه في هذا الرأي رجال الدين في أوروبا الشرقية ، ومنهم صادق الذي رفض السفر إلى القدس خشية تفسير ذلك بأنه مؤيد للحركة الصهيونية ، كما أدان رجال الدين اليهود هذه الحركة واعتبروها من قبيل الهرطقة المخالفة لليهودية .

ورأى إيزاك بروير أن اليهود أمة دينية تختلف عن بقية الأمم في أن الدين هو أساس وجودها ، فإذا كانت الصهيونية تريد ترك الدين وبعث الأمة فإن النتيجة ستكون إقامة أمة أشبه بالصدفة الفارغة .

وقد تزعم حزب « أجودات إسرائيل » الذي أسس عام ١٩١٢ المعارضة الدينية للحركة الصهيونية ، ورفض التعاون مع أحزاب دينية أخرى مثل « مزراحي » بسبب تعاملها مع هذه الحركة ، وتقدم إلى عصبة الأمم والحكومة البريطانية بالاحتجاجات بسبب موافقتهما على إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين .

ولكن مالبت الحزب - إزاء التطورات التي حدثت في فلسطين - أن عدل عن مواقفه وبدأ يشارك في عملية الاستيطان ، ثم أدت مواقف النازية من اليهود إلى إثارة الخلافات داخل الحزب بالنسبة للموقف من الحركة الصهيونية ، وإثارة البلبلة في صفوفه . وانفصلت عنه طائفة « نيطوري كارتا » التي وجدت أن الحزب قد خفف من معارضته للحركة الصهيونية ، وظلت هي على موقفها من اعتبار الإرادة الإلهية هي وحدها التي تقرر خلاص اليهود بعد أن يخلصوا أنفسهم باتباع الوصايا الدينية (٦١٣ وصية) التي أمرهم بها الإله . وتعيش هذه الطائفة في إسرائيل دون الاعتراف بالدولة

وترفض حمل بطاقات الهوية التي تصدر للإسرائيليين ، وتحافظ على التقويم الزمنى اليهودى .

ومن ناحية أخرى ، وجد فريق من الحاخامات اليهود الأرثوذكس التفسيرات الدينية المؤيدة للحركة الصهيونية ، والداعية إلى التعاون معها باعتبار إقامة دولة إسرائيل بداية للعهد المسيحاني .

وكان من أوائل هؤلاء الصهيونيين الدينيين الحاخام اسحق كوك (*) (١٨٦٥ - ١٩٣٥) ، الذى ذهب إلى أن « أرض إسرائيل جزء من صميم جوهر قوميتنا ، وهى مرتبطة عضويا بحياتها ولب كيائها . والعقل البشرى وهو فى أسمى ذراه لا يستطيع أن يبدأ فى فهم القداسة الفريدة التى تتسم بها أرض إسرائيل . فالأمل بالخلاص هو القوة التى تحى اليهودية فى الشتات ، واليهودية فى أرض إسرائيل هى الخلاص نفسه » .

كما كتب أن « من شأن عمل الإلهام الروحى أن يرد إلى الأمة جلالها الغابر ، وذلك بأن يعيد الوقار الأبوى إلى ملوك إسرائيل » . وكان يبدى التسامح تجاه الصهيونيين العلمانيين وحتى الملحدين منهم ، فقد كان من رأيه « إن نبذ هؤلاء الذين ضلوا عن سبيل التوراة والإيمان الدينى ، وانجرفوا مع تيارات العصر ليس من إرادة الله فى شىء . فالجوهر الداخلى للقداسة اليهودية لا يزال فى قلوبهم » .

وقد تابع ابنه الحاخام تسفى يهودا كوك (١٨٩١ - ١٩٨٢) منهاج أبيه ، بل قام بتأصيل الأيدلوجية الصهيونية بدرجة أكبر . فقد كتب إن « جماعة الأمم خلقت دولة إسرائيل وأنشأتها بأمر من رب العالمين من أجل أن يتم الأمر الوارد فى التوراة والقاضى بأنهم سيرثون الأرض ويسكنونها ، وعندما تكون دولتنا فى موقع السيطرة التامة داخليا وخارجيا ، عندئذ يمكن تحقيق الميثاقا (الفريضة الدينية) التى تعد أساس وجوهر كل الميثاقوت (الفرائض) المتعلقة بالميراث والاستيطان فى الأرض . والدولة هى التى تستطيع بحكمتنا أن تحقق الخلاص » .

ومن الصهيونيين الدينيين ، الحاخام مائير إيلان والحاخام موشى ليفجر الذى تزعم حركة الاستيطان فى الأراضى الفلسطينية المحتلة .

(*) إيان لوستيك . الأصولية اليهودية فى إسرائيل .

الصهيونية المسيحية :

مع حركة الإصلاح البروتستانتي في القرن السادس عشر ، تغيرت لدى فريق من المسيحيين النظرة التقليدية التي كانت سائدة بشأن اليهود وتاريخ الشعب اليهودي . فقد كانت الفكرة الكاثوليكية السائدة هي عدم تفسير ما جاء في التوراة عن العهد الإلهي وظهور المسيح وعودة اليهود إلى فلسطين تفسيراً حرفياً ، وإنما كان تفسير الكنيسة هو أن اليهود قد ارتكبوا المعصية فعاقبهم الله بنفيهم إلى بابل ، وانتهى وجودهم كأمة مع نفيهم الثاني (شتاتهم) ، أما ما جاء في التوراة بشأن عودتهم إلى فلسطين ، فقد تحقق بعد عودتهم من بابل ، وأما ما تضمنته التوراة من نبوة عن مستقبل إسرائيل فإن المقصود هو إسرائيل الجديدة أي الكنيسة المسيحية . وقد أدخلت الحركة الإصلاحية البروتستانتية تعديلاً جوهرياً على تلك النظرة ، حيث ركزت اهتمامها على العهد القديم من الكتاب المقدس ، وما يحويه من قصص تحكي التاريخ اليهودي القديم ، وفسرت نصوص التوراة تفسيراً حرفياً ، بحيث أصبح الكثيرون يعتقدون أن اليهود الذين يعيشون في البلدان المسيحية أجنب عنها ، وسوف يعودون إلى فلسطين تحقيقاً لنبؤات التوراة .

وظهرت ما تعرف بالعقيدة الألفية milleniarism القائلة بأن المسيح المنتظر سوف يحكم العالم لمدة ألف عام يسود خلالها السلام والعدل ، وستسبق الخلاص النهائي حروب طاحنة . ونتيجة لهذه العقيدة ، أصبح فريق من المسيحيين يؤيدون الهدف الصهيوني الرامي إلى عودة اليهود إلى فلسطين وإقامة دولة يهودية فيها .

ويطلق على هؤلاء الصهيونيون المسيحيون . وإذا كان بعضهم ينطلق في تأييده للصهيونية من عقيدة دينية من أمثال توماس برايتمان ، فإن منهم من اختلطت عنده العقيدة الدينية بالغرض السياسي من أمثال نابليون بوناپرت الذي دعا اليهود خلال حملته على فلسطين إلى العودة إليها وإقامة دولتهم فيها ، وبلغفور الذي إلى جانب ما قيل عن ميوله الدينية ، وجد في إقامة الدولة اليهودية في فلسطين ما يحقق مصالح الإمبراطورية البريطانية . ومن هؤلاء البريطانيين وينجيت ، وريتشارد مينيرتسهاجين اللذان قدما لليهود خدمات جليلة خلال الانتداب البريطاني . كما قيل إن رونالد ريجان كان من بين المؤمنين بهذه العقيدة .

وعلى أية حال ، فلاشك أن ذبوع تلك الأفكار البروتستانتية في البلدان المسيحية ، قد مهد السبيل أمام الحركة الصهيونية ، وكفل لها تأييد ودعم عدد من رجال الفكر والسياسة في العالم المسيحي .

الفصل الثالث

نشأة اليمين الصهيوني المتطرف

الاتجاهات داخل الحركة الصهيونية :

أ- الصهيونية التوفيقية : (Synthetic Zionism)

كان الخلاف الرئيسى داخل الحركة الصهيونية ، هو ذلك الذى كان قائما بين ما يسمون « بالصهيونيين السياسيين » ومن يسمون « بالصهيونيين العمليين » . فالفتة الأولى التى كانت مؤيدة لبيتودور هيرتزل كانت تعطى الأولوية لحصول الحركة على اعتراف وتأييد الدول - وخاصة الكبرى - لهدف إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، بحيث يبدأ تهجير اليهود فى حماية دولية . أما الفتة الثانية ، فقد كانت تركز على تهجير اليهود وبناء المستوطنات فى فلسطين وتعطى الأولوية لهذا الهدف مع السعى للحصول على الاعتراف والتأييد الدوليين . وكانت حركة أحباء صهيون قد بدأت فى إقامة المستوطنات اليهودية الأولى فى فلسطين فى أواخر القرن الماضى ، وأصبحت فى حاجة إلى الدعم من أجل مواصلة النشاط الاستيطانى . وكان هيرتزل متمسكا برأيه أن المسألة اليهودية ليست مجرد قضية دينية ، أو اجتماعية وإنما هى قضية سياسية تتطلب إجراء مفاوضات مع الدول المعنية ، وأن الاستيطان وصل إلى أقصى ما يستطيع تحقيقه ، فالمطلوب هو الاستيطان القومى ، وليس التسلل إلى فلسطين . وقد تغلبت الصهيونية العملية وسيطرت على المنظمة منذ عام ١٩١٢ .

غير أن الحركة الصهيونية واصلت نشاطها بمزيج من الاتجاهات السياسية والعملية ، مما أطلق عليه تعبير « الصهيونية المركبة أو التوفيقية » .

وقد قصد بهذا التعبير التوفيق بين الاتجاهات المختلفة ، التى كانت سائدة فى الفكر

الصهيوني ، وخاصة بين ذوى الاتجاهات السياسية والعملية ، بما يسمح للجميع بالعمل فى إطار الحركة الصهيونية دون التقيد بأهداف أو أساليب محددة .

بـ الصهيونية العمالية (Labour Zionism)

ويطلق عليها كذلك اسم الصهيونية الاشتراكية . ويعتقد أصحاب هذا الفكر أن المسألة اليهودية ترجع إلى الوضع الاقتصادى والاجتماعى لبعض قطاعات اليهود ، وأنها ليست مشكلة دينية أو حضارية . فأوضاع اليهود تختلف عن أوضاع الشعوب التى يعيشون فيها ، إذ أن تحريم ممارستهم للزراعة أدى إلى معيشتهم فى المدن بصفة أساسية ، كما أن العمال اليهود حرم عليهم القيام بكثير من الحرف ، وأصبحوا يتممون إلى البروليتاريا الفقيرة ، أما أغنياء اليهود ، فيشتغلون بالتجارة والربا ، وبصفة عامة أصبح دور اليهود فى المجتمعات المختلفة هامشياً . والحل هو إقامة دولة يهودية .

وقد أسست منظمات عمالية متعددة مثل عمال صهيون ، والعامل الفتى ، والحارس الفتى . وكان للصهيونية العمالية دور رئيسى فى إقامة الهستدروت والكيوتس والهاجاناه ، وإقامة البناء الداخلى فى إسرائيل . وانبثق منها حزب الماباى (المتأثر بأفكار المفكرين العماليين اليمينيين) الذى تحول إلى حزب العمل ، وظل مسيطراً على حكم إسرائيل حتى عام ١٩٧٧ .

جـ الصهيونية التصحيحية (Revisionist Zionism) :

أسس حركة الصهيونية التصحيحية فلاديمير جابوتنسكى بسبب عدم موافقته على السياسة التى كان يتبعها حاييم وايزمان سواء بالنسبة للاستيطان ، أو فى علاقاته مع السلطات البريطانية .

وهى حركة يمينية متطرفة ، وسوف نعاود الكلام عنها فيما يلى .

دـ الصهيونية الثقافية (Cultural Zionism) :

دعا آحاد هاعام إلى الصهيونية الثقافية التى لقيت تأييداً كبيراً من المفكرين الصهيونيين المعاصرين . وهى تختلف مع هيرتزل فيما ذهب إليه من أن السبب الأساسى لمشكلة اليهود هو معاداة السامية والعجز السياسى والاقتصادى لليهود ، وإنما الخطر الحقيقى الذى يهدد الاستمرارية اليهودية هو فقدان اليهود الإحساس بالوحدة وضعف تمسكهم بقيمهم وتقاليدهم . وتنتهى الصهيونية الثقافية إلى أن

الدولة اليهودية يجب أن تكون المركز الروحي لليهودية ، وإقامتها لا تكون بالوسائل السياسية والمال وإنما بتوفير المناخ النفسي وتقوية الوعي القومي لدى اليهود ، ثم تأتي بعد ذلك الدولة لتقوم بدور المركز الروحي والثقافي لليهودية ، ويرجع آحادها عام ضعف الإحساس القومي لدى اليهود إلى شتاتهم وتأثرهم بالحضارة الأوروبية .

هـ- الصهيونية الإقليمية (Territorial Zionism) :

يختلف أنصار هذا الاتجاه عن بقية الصهاينة السياسيين في أنهم لا يرون ضرورة تحتم إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين بالذات . ومن أهم دعاة الصهيونية الإقليمية الانجليزى إسرائيل زنجويل . وقد وافق أنصارها على مشروع شرق أفريقيا (أوغندا) ، الأمر الذى أدى إلى الانقسامات فى الحركة الصهيونية عام ١٩٠٣ ، وانفصال زنجويل وتأسيس حركته الإقليمية . وقد كان الصهاينيون الإقليميون يرون أن اختيار فلسطين الأهلة بسكانها العرب لإنشاء الدولة اليهودية فيها سوف يؤدى إلى المصادمات والحروب الدائمة مع العرب .

و- أنصار الدولة ثنائية القومية (Bi - nationalism) :

دعا بعض الصهاينة - خلال فترة الانتداب البريطانى - إلى حل النزاع العربى اليهودى على فلسطين بإقامة دولة ثنائية القومية ، يهودية عربية ، على أساس المساواة السياسية بصرف النظر عن النسبة العددية للسكان ، وتمتع كل من الأمتين بالحكم الذاتى فى الشؤون الداخلية .

وممن تقدموا باقتراح فى هذا الشأن فلاديمير جابوتنسكى عام ١٩٢٢ (فى وقت كان اليهود فيه يمثلون ١٠ ٪ من السكان) ، كما تقدم بن جوريون عام ١٩٢٩ باقتراح نظام الكونتونات . وكان كلا الاقتراحين من قبيل التكتيكات .

ولكن كانت هناك جماعات تطالب بدولة ثنائية القومية ، ومنها بریت شالوم وهاشومير هاتزاعير وإيحدود ، وشخصيات تتزعم هذا الاتجاه من أشهرها يهودا ماجنيس ومارتن بوبر .

الاتجاهات اليمينية :

شهدت الحركة الصهيونية منذ نشأتها اتجاهات يمينية فى صفوف أعضائها ،

ونقصد- فى هذا المجال- تلك الاتجاهات التى كانت تعارض التيارات الاشتراكية التى كانت تمثلها الصهيونية العمالية ، كما تعارض السياسات التى كان ينتهجها حاييم وايزمان والتى أطلق عليها اسم « الصهيونية التوفيقية » ، ومواقفه المسالمة مع بريطانيا وتتسم هذه الاتجاهات اليمينية- بصفة خاصة- بالروح العسكرية والدعوة إلى إقامة جيش يهودى قوى يقوم بالدفاع عن المستوطنين اليهود .

أما موقف هؤلاء اليمينيين من عرب فلسطين ، فإنه يقوم أساسا على القوة والإرهاب والردع كوسائل للتعامل معهم، وفرض قبولهم للمخطط الصهيونى . وتعتبر حركة الصهيونية التصحيحية التى أسسها فلاديمير جابوتنسكى هى أساس نشأة اليمين الإسرائيلى ، وإن كان ماكس نورداو يعدّ من أقدم الشخصيات اليمينية التى عرفت الحركة الصهيونية عند نشأتها .

ماكس نورداو :

كان ماكس نورداو (١٨٤٩ - ١٩٢٣) من أصدقاء هيرتزل ورفاقه الأوائل . وقد وقف إلى جانبه بوجه هجومه العنيف على الصهيونيين العمليين مشبها أحياء صهيون بمن يريدون ضخ ماء المحيط بإناء ، ذاكرا إن الصهيونية لا تتحمل أية مسئولية تجاه المستوطنات فى « أرض إسرائيل » فإنها لو ازدهرت فإن هذا الازدهار لن ينسب إلى الصهيونية ، وإذا اندثرت فإن ذلك لن يكون خطأها ، كما أن عدداً محدوداً من المستوطنات لن ينقذ الشعب اليهودى .

كما هاجم نورداو الصهيونية الثقافية باعتبارها لا تقدم حلاً لمشكلة الشعب اليهودى . وهاجم الصهيونية الدينية موضحاً أن الصهيونية السياسية تختلف عنها ، وأنه سيأتى الوقت الذى يصبح فيه كتاب هيرتزل عن دولة اليهود فى نفس مقام التوراة .

كذلك صلب نورداو هجومه على الصهيونية الاشتراكية ، « فأين يمكننا أن نجد لدى الشعوب الأخرى شيئاً مشابهاً لتلك العدالة الاجتماعية التى تنبعث من تعاليم موسى » ؟ .

وانتقد بشدة الصهيونيين الذين وافقوا على إقامة الدولة اليهودية فى أوغندا ، واعتبرهم نسخة غير منقحة من أحياء صهيون .

وبعد صدور وعد بلفور ، بدأ نوردאו يهاجم سياسات حاييم وايزمان تجاه البريطانيين والعرب على السواء . وانتقد موقف الحركة بقيادته من السكوت على اقتطاع بريطانيا لشرق الأردن من « دولة إسرائيل » ، فهذه الأرض - في رأيه - غير قابلة للتقسيم ، بل إن شرق الأردن أهم لليهود بسبب قدرته على استيعاب أعداد كبيرة منهم ، كما طالب بأجزاء أخرى من سوريا .

أما بالنسبة لعرب فلسطين ، فقد أعلن أن هناك حاجة ملحة لنقل ملكية الأراضي منهم إلى اليهود ، مطمئنا العرب بأنهم سيقبضون ثمن الأرض التي يملكونها ، أما الأراضي الحكومية التركية فإنها إرث قانوني لليهود . وفي الوقت نفسه ، فإنه دعا إلى التصلب مع العرب والتصدي لمقاومتهم بالقوة ، « إذ أن على رأس هذه المقاومة تقف حفنة من المسيحيين السوريين استطاعت أن تجتذب إلى جانبها بعض دعاة العروبة ، وبعض المسلمين من القوميين المتعصبين . . بحلم مُسكر عن امبراطورية عربية كبرى في آسيا وإفريقيا الشمالية ، وليس لدى الصهيونيين على كل حال سبب وجيه لمعارضة هذه الأمانى ما دامت محصورة خارج فلسطين » . وأما في فلسطين نفسها فيجب معارضة هذه المشاريع ، والوسيلة الوحيدة لمعارضة المشاريع العربية هي - في رأى نورداو - تحقيق الغالبية اليهودية العددية في فلسطين .

وبالرغم من هذه المواقف ، فإن نورداو لم يقيم بأى نشاط تنظيمي لجمع مؤيديه .

جابتونسكى والجدار الحديدى :

ولد فلاديمير جابتونسكى (الشهير بزيث) فى أوديسا ونشأ فى ظل الظروف السائدة فيها فى أواخر القرن التاسع عشر - التى سبقت الإشارة إليها - والتى شكلت شخصيته الثورية واتجاهاته القومية المتطرفة . وترك الدراسة فى سن السابعة عشر ليعمل مراسلا صحفيا فى برن ، وواصل دراساته فى روما حيث أثرت فيه حركة الوحدة الإيطالية ونضال زعمائها . ثم عاد إلى روسيا ، وكان من بين المدافعين عن اليهود ضد الهجمة التى شنت على تجمعاتهم فى أوديسا عام ١٩٠٣ . وانضم إلى الحركة الصهيونية ، وأصبح من دعاةها منذ عام ١٩٠٨ حيث عين ممثلا لها فى تركيا .

وكان جابتونسكى شديد الميل للعسكرية . وفى خلال الحرب العالمية الأولى دعا إلى تشكيل وحدة من المتطوعين اليهود للقتال فى صفوف القوات البريطانية ، ونجح

فى تشكيل الكتبية اليهودية (التى عرفت بكتبية سائقى البغال) والتى شاركت فى القتال فى أواخر تلك الحرب .

وفى عام ١٩٢٠ ، أصبح قائداً للهاجاناه اليهودية فى مدينة القدس ، وقبضت عليه السلطات البريطانية فى أحداث الاشتباك المسلح بين الفلسطينيين واليهود ، وحكم عليه بالسجن ١٥ عاما ، ولكنه أفرج عنه بعد بضعة شهور بأمر من هيربرت صمويل المندوب السامى البريطانى ، وقد ترك السجن مرارة شديدة فى نفس جابوتنسكى الذى كان يرى أن اليهود سجنوا ظلما ، لأنهم كانوا يدافعون عن أنفسهم ، ولم يكتف بالإفراج عنه بل تمسك بشطب عقوبته ونجح فى ذلك .

وفى عام ١٩٢٣ استقال جابوتنسكى من منصبه الذى كان قد عين فيه عضوا فى اللجنة التنفيذية الصهيونية احتجاجاً على سياسة المنظمة الصهيونية تجاه بريطانيا ، حيث رأى أنها اتخذت موقفا مسالما من اقتطاع الحكومة البريطانية إمارة شرق الأردن - التى اعتبرها جزءا من أرض إسرائيل - واستثناءها من تطبيق وعد بلفور .

وفى عام ١٩٢٣ ، أسس جابوتنسكى حركة بيطار للشبيبة الصهيونية ، بهدف تدريب الشباب وإعدادهم عسكريا . وكانت مراكز الحركة الرئيسية فى بولندا ودول البلطيق وفلسطين . وقد أقامت مراكز للتدريب العسكرى ، ومدارس للبحرية والطيران فى دول مختلفة ، وبلغ عدد أعضائها حوالى ٨٠ ألفا .

وفى عام ١٩٢٥ ، أسس ما عرف بالحركة الصهيونية التصحيحية Revisionist Zionism فى باريس ، ثم استقر فى فلسطين ، ولكنه رحل منها بعد المصادمات العنيفة بين العرب واليهود عام ١٩٢٩ ، ولم يسمح له بالعودة إليها ثانية .

كان جابوتنسكى خطيبا مفوها ، وقد أحدثت كلمته الافتتاحية التى ألقاها لإعلان قيام حركته التصحيحية أثرا كبيرا فى أوساط اليهود فى دول شرق أوروبا . فقد هاجم بعنف برنامج المنظمة الصهيونية العالمية ، ووصفه بالتخاذل وعدم تبنى أفكار خلافة والاكتفاء بإقامة الجامعة العبرية ، وتوطين آلاف قليلة من المهاجرين ، وطالب بقيام سلطة الانتداب البريطانية بدور نشيط فى إقامة الدولة اليهودية ، فالاستيطان المكثف ليس من عمل مؤسسة خاصة أو نشاطا تطوعيا ، وإنما هو من مهام دولة ، أى أن جابوتنسكى خالف فى ذلك سياسة حاييم وايزمان مطالبا بأن تتولى بريطانيا دور الشريك الكامل فى عملية الاستيطان اليهودى وألا تتولاه المنظمة الصهيونية بمفردها .

وظل التمسك بالمطالبة بشرق الأردن واحداً من أهم مطالب الحركة التصحيحية . فهو- فى رأيها- جزء لا يتجزأ من أرض إسرائيل ، ويجب على اليهود استرداده واستيطانه ، بل إن هذه المنطقة ، بمساحاتها الشاسعة ، تستوعب عدة آلاف من المهاجرين . وطالما أن الكتاب الأبيض البريطانى لعام ١٩٢٢ قد استبعد شرق الأردن من الوطن القومى اليهودى بأمل قبول العرب لوعده بلفور ، وبما أن العرب لم يقبلوه فى حين قبلته الحركة الصهيونية مكرهه ، فإن الكتاب الأبيض يعتبر لاغيا .

وكان يرى أن الهدف الأول للصهيونية هو تحقيق الغالبية اليهودية فى فلسطين ، ومن أجل تحقيق هذه الغالبية ، فقد كان يقترح هجرة ٤٠ ألف يهودى سنوياً إليها ، على أن يرتفع المعدل ما بين ٥٠ و ٦٠ ألفاً سنوياً بعد الحصول على شرق الأردن ، ويجب على سلطة الانتداب أن تقوم بدور فعال لتنفيذ وعد بلفور . كما يجب التمسك باستعادة شرق الأردن ، وعدم تقديم أية تنازلات عن أى جزء من أرض إسرائيل . أما الدفاع عن الوطن القومى اليهودى ، فهو مسئولية اليهود أنفسهم ويجب بناء جيش يهودى قوى ، وإقامة ما أسماه بالجدار الحديدى لردع العرب .

وكان جابوتنسكى يعارض الأفكار الاشتراكية ، ويرى أن للقطاع الخاص دوره الهام فى الزراعة والصناعة .

وقد لخص برنامجيه فى صيغة موجزة على النحو التالى :

« هدف الصهيونية هو الدولة اليهودية- وامتدادها الإقليمى على جانبي نهر الأردن- ونظامها هو الاستيطان الشامل- وحل المشكلة المالية هو القرض الوطنى ، ولا يمكن تحقيق هذه المبادئ الأربعة بدون التأييد الدولى . ولذلك فإن وصية الساعة هى حملة سياسية جديدة ، وعسكرة الشباب اليهودى فى أرض إسرائيل والشتات » .

الفصل الرابع الصهيونية والعرب

أرض بلا شعب :

من الشعارات التي رفعتها الحركة الصهيونية من أجل تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين : « شعب بلا أرض إلى أرض بلا شعب » .

ومع ذلك ، فقد كان اليهود يدركون أن فلسطين لم تكن خالية من السكان ، بل كان يسكنها مئات الآلاف من العرب الفلسطينيين ، يشكلون الغالبية العظمى هم أهالي البلاد ، ومن بينهم عائلات ترجع بأصولها إلى السنوات الأولى للفتح العربى ، بل إنهم يعتبرون أنفسهم من السلالات العربية التي هاجرت إلى فلسطين عندما كانت تسمى أرض كنعان .

ففى عام ١٨٨٢ ، كتب الحاخام كاليشر عن عرب فلسطين والخطر الذى يهدد المستوطنين الأوائل منهم . وفى عام ١٨٩١ ، لفت أحادها عام أنظار اليهود إلى المشكلة التي يواجهونها فى فلسطين ذاكرا أن العرب على علم بأنشطة اليهود ورغباتهم وإذا ما أحسوا بخطرهم على مراكزهم عندما يسيطرون على البلاد فإنهم لن يتركوهم فى سلام .

أما تيودور هيرتزل ، فإنه بالرغم من زيارته لفلسطين ، فإنه لم يقابل أحدا من الفلسطينيين فيها . وكان هو وغالبية زعماء الحركة الصهيونية واقعين تحت وهم كبير هو أن عرب فلسطين سوف يتقبلون المخطط الصهيونى لأنهم سوف يستفيدون ماديا من الهجرة اليهودية . وردا على أحد السائلين عما إذا كانت تلك الهجرة قد سببت الخراب للفلسطينيين ، أبدى هيرتزل دهشته ، قائلا إنها بركة لكل منا ، وإن

كان ملاك الأراضي هم أكبر المستفيدين لأنهم باعوا أراضيهم لليهود بأثمان باهظة .

وكان تصور ماكس نورداو أن الزراعة الحديثة سوف تمكن اليهود المهاجرين من استيطان الأراضي دون حاجة إلى رحيل العرب .

ولما كانت الأيديولوجية الصهيونية تقوم على إنشاء دولة يهودية خالصة ، فقد ظل هدفها الثابت هو تحقيق الغالبية السكانية في فلسطين .

وأيا كانت الخلافات بين أصحاب الاتجاهات المتعددة داخل الحركة الصهيونية ، فقد أجمعوا على هذا الهدف ، ووجد كل منهم المسوغات لتحقيقه على الرغم من أن الغالبية العظمى لسكان فلسطين كانوا من العرب .

أما الصهيونية العمالية ، فقد أرجعت المشكلة اليهودية إلى عدم وجود دولة لليهود ، فضلا عن عدم وجود هيكل طبقي للأمة اليهودية بسبب الشتات اليهودي الطويل الذي جعل من اليهود سماسرة ووسطاء ومقاولين هامشين مع أعداد ضخمة من العمال . ورأت في تحقيق الغالبية اليهودية في فلسطين ما يحقق هدف إقامة الدولة وتغيير تكوينها السكاني من أجل إفساح الطريق لتوطين اليهود فيها . فالأغلبية اليهودية - على حد قول بن جوريون - « ليست سوى مرحلة على طريقنا الطويل ، وإن كانت مرحلة حاسمة بالمعنى السياسي » . وأما الصهيونية الثقافية ، فإنها كانت تستهدف حل مشكلة اليهودية ذاتها التي كانت في رأيها مهددة من جانب الحضارات العلمانية في دول الشتات ، وترى ضرورة إقامة مركز روحي يعمل على تركيز - وتوحيد الأمة اليهودية ، وهذا المركز يتطلب أن تكون لليهود الغالبية بين سكان الدولة ، إذ أن المؤسسات الثقافية في أي مجتمع تكون خاضعة للدولة ، وتحمل طابع أغلبية سكانها .

وترى الصهيونية التصحيحية أن حق اليهود في أرض إسرائيل مقدم على حق العرب ، فاليهود ليس لهم سوى هذه الأرض في حين أن العرب يملكون مساحات شاسعة من الأراضي في البلاد الأخرى .

ولم يخرج عن هذا الإجماع إلا الفئات المنشقة (مثل بریت شالوم وإيخود) التي كانت ترى أن وراء هدف تحقيق الأغلبية السكانية إدعاء يعطى اليهود حقوقا متميزة في إقامة دولة لهم والتسلط على عرب فلسطين واضطهادهم .

وسوف نرى فى الصفحات التالية كيف يبرر كثير من زعماء الحركة الصهيونية ما يعتبرونه حق اليهود فى أن تكون لهم الغالبية السكانية فى فلسطين ، وإن اقتضى الأمر ترحيل سكانها العرب أو طردهم قسراً إذا لزم الأمر .

ويذكر نورمان فينكلستين (*) أن هذا الهدف حدد أسس الاستراتيجية التى أجمع عليها الصهليونون فى تعاملهم مع « المشكلة العربية » .

وتتلخص هذه الأسس فيما يلى :

أولاً- إنه يجب ألا تتوقع الحركة الصهيونية أو تسعى إلى قبول الفلسطينيين لمشروعها . وهذا ما أكده جابوتنسكى وما اعترف به بن جوريون بعد محاولته التفاهم مع عدد من الزعماء العرب .

ثانياً- إن نجاح المشروع الصهيونى يتوقف على دعم واحدة أو أكثر من الدول الكبرى . وقد ذكر جابوتنسكى بصراحة « أن الاستيطان لا يمكن أن يتطور إلا فى حماية قوة لا تعتمد على السكان المحليين (العرب) وإنما بفضل جدار حديدى يكونون عاجزين عن كسره » . وقد سعى الصهليونون إلى ألمانيا وتركيا ثم إلى بريطانيا وأخيراً إلى الولايات المتحدة لدعمهم فى تحقيق الغالبية السكانية وإقامة الدولة اليهودية .

ثالثاً- حل النزاع على فلسطين فى إطار تحالف يخضع لمصالح الدولة والدول الكبرى .

وكان جابوتنسكى يرى الاعتماد على بريطانيا- أما بن جوريون ، فإنه اتجه بتفكيره إلى حل هذا النزاع عن طريق محاولة إقناع الزعماء العرب بتأييد المشروع الصهيونى مقابل تأييد الصهيونية للحركة القومية العربية التى كانت تسعى لتحقيق الوحدة بين الدول العربية ، وبأن يكون حل مشكلة فلسطين فى هذا الإطار الإقليمى بحيث تكون لليهود السيادة على فلسطين مقابل أن تنضم إلى أى من الاتحادات العربية (مثل الهلال الخصيب وسوريا الكبرى) ، وسوف نتطرق إلى محاولات بن جوريون فى هذا الشأن فى الصفحات القادمة .

(*) Norman Finkelstein : Image And Reality of the Israel - Palestine Conflict

وايزمان والعرب :

تمكن وايزمان - بتوظيف صداقاته واتصالاته مع البريطانيين - من الحصول على وعد بلفور عام ١٩١٧ والذي يعدّ الخطوة الأساسية على طريق إقامة الوطن القومي - ثم الدولة اليهودية - في فلسطين . وقد شارك وايزمان في صياغة هذا الكتاب الموجه من اللورد بلفور إلى روتشيلد ، واقترح تعديلات متعددة لهذه الصياغة بما يضمن تنفيذ التزام بريطانيا وبرز الاعتراف بالحق القومي لليهود في فلسطين ، ويغفل الحقوق القومية للفلسطينيين . فالكتاب ، إذ يسجل تعاطف الحكومة البريطانية مع إنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين ، لا يذكر سوى الحقوق الدينية والمدنية لبقية الطوائف ، فحقوق اليهود وطنية سياسية ، أما الفلسطينيون فهم طائفة كل مالها في فلسطين إنما هي حقوق ذات طابع ديني ومدني .

فكيف كانت نظرة وايزمان للفلسطينيين ؟ وماذا كان مفهومه لحقوقهم ؟ يقول أحد مؤرخي سيرته (*) إنه كان من بين أوائل الصهيونيين الذين اهتموا « بالمشكلة العربية » ، وكان من رأيه أنه « إذا أتى اليوم الذي نطوّر فيه حياتنا في أرض إسرائيل إلى حد الإضرار بهم (أي بالفلسطينيين) إضرارا كبيرا أو قليلا ، فإنه يجب علينا ألا نتوقع منهم التخلي عن مكانهم بسهولة » .

ويذكر أن تلك المشكلة كانت هي شاغله الأكبر ، عندما سافر إلى فلسطين في أعقاب صدور وعد بلفور . فقد كان يطمع في استباق أي رد فعل عربي عدائي والتوصل إلى اتفاق مع الوطنيين العرب . وصل وايزمان على رأس لجنة يهودية واجتمع في عشاء عمل في القدس في أبريل ١٩٢٨ ، بدعوة من البريطانيين - مع عدد من الوجهاء الفلسطينيين من بينهم كامل الحسيني مفتي القدس ، ووجه إليهم كلمة بليغة عن النوايا السلمية للصهيونية ، وأن في فلسطين متسعا كافيا للشعبيين العربي واليهودي . وسجل في مذكراته « إنني أشعر أنني لست في حاجة إلى أن أشغل نفسي بعد ذلك بالعرب ، فقد قمنا بكل ما هو مطلوب منا ، وشرحنا وجهة نظرنا علنا وبصراحة : ولهم أن يقبلوها أو يرفضوها » ، ولكنه كان مقتنعا بخطورة المشكلة ومدركا لأبعادها « فعرب فلسطين قد وجهت إليهم النداءات للاستيقاظ من سباتهم

(*) Norman Rose : Chaim Weismann.

والدفاع عن أرضهم وحریتهم وأماكنهم المقدسة ضد القادمين من أجل سرقة كل شيء» .

وكان البريطانيون يسعون جاهدين لتحقيق نوع من التفاهم بين الصهيونيين والعرب ، ورتبوا وايزمان لقاء مع الأمير فيصل بن الشريف حسين حاكم مكة في أوائل يناير ١٩١٨ وسجل وايزمان في مذكراته إعجابه بشخصية الزعيم العربي - زاعماً « أنه قليل الاهتمام بفلسطين ولكنه يريد دمشق وسوريا الشمالية بأكملها » .

ويذكر مؤرخه أن وايزمان كان متأكداً من أن المسألة العربية هي المشكلة الرئيسية ، وكان صادقا في اقتناعه بضرورة إيجاد حل مرض وممكن تنفيذه لها ، ولكنه كان يعتمد على تأييد ضعيف من جانب فيصل والبريطانيين . ومع ذلك فقد كان يفكر في حل أكثر راديكالية وعلى نطاق أوسع مما كان مقبولا بصفة عامة . وعندما تطور الاستيطان في ظل الانتداب البريطاني كان مصمما على أن يواجه الصهيونيون الحقائق ذاكرا « أن فلسطين يجب أن تبني دون المساس بشجرة واحدة من المصالح المشروعة للعرب ، وأن على المؤتمر الصهيوني أن يعترف بأن فلسطين ليست روديسيا ، ولكن فيها ٦٠٠ ألف عربي لهم - من وجهة نظر العدالة الدولية - حق الحياة في فلسطين بنفس قدر الحق الذي لنا فيها في الوطن القومي » .

ولم يؤد الاتفاق الذي وقعه وايزمان مع الأمير فيصل في ٣ يناير ١٩١٩ إلى تحقيق ما كان يتطلع إليه من حل « المسألة العربية » . فقد تجاوزت الأحداث هذا الاتفاق الذي حرص فيه وايزمان على إبراز فلسطين ككيان منفصل عن الدولة العربية ، وتأكيد علاقات التعاون بينهما في المستقبل ، فلم تتحقق مطالب فيصل في إقامة الدولة العربية حيث وقعت سوريا ولبنان تحت حكم فرنسا وتحقق الشرط الفاسخ للاتفاق الذي كتبه فيصل في تحفظه الذي أثبت فيه ، وحقت بريطانيا للصهيونية هدفها في بناء الوطن القومي اليهودي في فلسطين تحت حمايتها .

وفي أغسطس ١٩٢١ ، وصل وفد فلسطيني إلى لندن حيث قضى حوالى سنة أجرى خلالها اتصالات مع الحكومة البريطانية ، وطالبها بأن تلتزم الصهيونية بعدم إقامة دولة في فلسطين . وقد رفض وايزمان هذا الطلب . ورتب تشرشل اجتماعاً للوفد مع الزعيم الصهيوني ، ولم يكن اجتماعاً ناجحاً ، وقد وصف أحد المسؤولين البريطانيين حديث وايزمان فيه بأنه كان يتحدث بلغة المنتصر the conqueror .

كما التقى وايزمان مع نوري السعيد عام ١٩٣٦ - بعد قيام الثورة الفلسطينية - واقترح عليه الأخير أن تتخذ الحركة الصهيونية قرارا لتهدئة مشاعر الفلسطينيين، وإظهار حسن نواياها ، وذلك بوقف الهجرة اليهودية مؤقتا إلى فلسطين . وقد اقتنع وايزمان بالفكرة ولكن الوكالة اليهودية بقيادة بن جوريون رفضتها بشكل قاطع ، وأبدى وايزمان في مذكراته ندمه على ما اعتبرها سقطة من جانبه .

وعلى أية حال ، فبالرغم مما عرف عن وايزمان من حرص وتريث في إدارة المنظمة الصهيونية ، وعلى الرغم مما نسب إليه مؤرخه المشار إليه من الرغبة في عدم المساس بمصالح عرب فلسطين ، فلا شك في أنه - كغيره من الصهيونيين - كان يرى أن هذه المصالح لا تتعدى الحقوق المدنية والدينية ، والتي اصطلاحوا على تسميتها حقوق الإقامة ، مقابل تمتع اليهود بحقوق السيادة الكاملة على فلسطين . وسوف نرى بعد قليل أنه كان يرى ترحيل عرب فلسطين إلى شرق الأردن والعراق ، وقدم بالفعل اقتراحا بذلك إلى السلطات البريطانية .

جابوتنسكى والعرب :

كان جابوتنسكى يرى أن الدولة اليهودية سوف تكون فيها دائما أقلية عربية كبيرة لن تكف عن المقاومة إلا إذا أقامت الصهيونية جدارا حديديا يقضى على أى أمل لديها .

ويحاول « جابوتنسكى » فى كتاباته أن يبرر موقفه من الفلسطينيين ، فيذكر أن « كاتب هذه السطور لا يعتبر عدوا للعرب ، أو من أنصار طردهم ، فهذا ليس صحيحا ، وإن مشاعرى نحو العرب هى نفس مشاعرى تجاه كل الشعوب الأخرى ، وهى عدم الاهتمام المذهب polite indifference . فعلاقاتى السياسية يميزها مبدأن : الأول إن طرد العرب من فلسطين مستحيل تماما بجميع صوره ، فسوف يكون دائما فى فلسطين شعبان . والثانى إننى فخور بأننى كنت عضوا فى المجموعة التى صاغت برنامج هيلسنجفورس ، والذى قمنا بصياغته من أجل جميع الشعوب لا من أجل اليهود وحدهم ، على أساس المساواة بين كافة الأمم » (*) .

(*) الاقتباسات من كتابات جابوتنسكى مأخوذة من كتاب :

The Iron Wall - By Lenni Brenner

وهو يدعو إلى عدم إساءة تقدير العرب ، أو التقليل من ذكائهم بالرغم من أنهم - في رأيه - متخلفون ثقافيا عن اليهود بخمس مائة عام « فإن رأى أنصار الحلول الوسط (من اليهود) الذين يحاولون إقناعنا بأن العرب بلهاء يمكن خداعهم بصياغات مخففة لأهدافنا أو رشوتهم بالأموال للتخلي عن حق مولدهم في فلسطين من أجل منافع ثقافية واقتصادية ، هذا الرأي مرفوض مني تماما ، فكل الشعوب - سواء المتمدينة أو المتوحشة - يعتبرون بلادهم أوطاننا يكونون هم دائما أسيادها ، ولا يسمحون باختيارهم لأسياد آخرين عليها أو حتى لشركاء لهم فيها » .

والحل لديه هو الجدار الحديدي الذي يروع الفلسطينيين ، ويفرض عليهم الدولة اليهودية .

وهو يعلن بصراحة أنه ليس وحده صاحب هذا الرأي ، بل إن كل الصهيونيين يشاطرونه فيه ، فليس هناك فارق يذكر بين دعاة القوة العسكرية وغيرهم ، ويقول : « إنني أفضل الجدار الحديدي ببنادق يهودية ، في حين يقترح آخرون جدارا حديديا ببنادق بريطانية ، ويقترح غيرهم الاتفاق مع بغداد . ويبدو أنهم يطمئنون لبنادقها (ويقصد الاتفاق مع فيصل الذي نصب ملكا للعراق) ، ولكننا جميعا نصفق نهارا وليلا للجدار الحديدي » .

أما عن احتمالات الاتفاق مع الفلسطينيين ، فإنه يرى أنه « ليس معنى ذلك أن أي نوع من الاتفاقات مستحيل ، ولكن المستحيل هو الاتفاق الاختياري . فطالما أن هناك بارقة أمل في أنهم يستطيعون التخلص منا ، فإنهم لن يتخلوا عن هذا الأمل مقابل كلمات حلوة أو لقمة خبز ، لأنهم ليسوا جمعا من الغوغاء بل هم أمة ، ربما كانت مميزة ولكنها لا تزال حية » .

ونظرة « جابوتنسكي » إلى فلسطين والعالم العربي ، والتي يستند إليها - هو وتلاميذه من بعده - لتبرير مطالبتهم بإقامة دولة يهودية فيها ، هي نظرة شمولية للعالم العربي ، كما لو كان يشكل وحدة سياسية كبرى لا تشغل فلسطين منه إلا جزءا صغيرا ، وأن أملاك العرب شاسعة ولا يضيرهم اقتطاع جزء منها .

فهو يقول في كتاباته « إنني أحلم باجتماع عربي كبير ، يشارك فيه مندوبون من كافة الدول العربية - من أغادير حتى البصرة - والمندوب الإسرائيلي يقف أمام هذا الاجتماع ويعلن صراحة أن أرض إسرائيل ستكون وطنا لليهود يستوطنونها ويحكمونها ، ويذكر

لهم أن هذه الأرض هي أقل من واحد في المائة من المساحات الكبيرة التي منحكم الله إياها ، في حين أن شعبي بلا وطن . ولقد سميت هذه الأرض في قلبي دائما بأرضي . وربما لا تكون هناك حاجة للقتال مع أنني مستعد لأن أقاتل من أجلها فلما أن أحيأ بها أو أموت . يا أبناء إبراهيم سيقوم اسماعيل بتنفيذ مطالب إسرائيل لأنه سيكون من العدل أن يعاد تقسيم أرض الله من جديد حتى تستطيع أمة بلا وطن العودة إلى مملكتها السابقة » .

ويرى « جابوتنسكى » أن المطالب الصهيونية أخلاقية ، في حين أن مقاومة الفلسطينيين ورفضهم لإقامة دولة يهودية على أرضهم مواقف غير أخلاقية .

فهو يتساءل « هل يعتبر أخلاقيا أن يمتلك الشعب العربى الكثير في حين لا يمتلك الشعب اليهودى إلا القليل ؟ إن احتلال اليهود لأرض إسرائيل يجعلهم على حق في نظر الإله ، والكتائب العبرية جاءت لاحتلال البلاد من سلطة الاحتلال التركى وليس من العرب » .

أما عن وضع العرب في الدولة اليهودية عندما تصبح السلطة الكاملة في أيديها ، فإنهم يجب - في رأيه - أن يتمتعوا بحكم ذاتى واسع .

وبالرغم من أنه دعا في نهاية أيامه إلى إجراء عملية تبادل للسكان ، إلا أنه كان يعتقد أن « أرض إسرائيل » يمكن أن تستوعب مليون عربى ومليوناً آخر من نسلهم إلى جانب عدة ملايين من اليهود .

ولا يجد « جابوتنسكى » أية غرابة في أن يصبح العرب أقلية في بلدهم بعد أن تتحقق الأغلبية لليهود في فلسطين بوصول ملايين المهاجرين ، فهو يكتب « إن جزءاً واحداً ، فرعاً واحداً وصغيراً من هذا الجنس سوف يكون عليه أن يعيش في دولة للآخرين ، وهذه هي الحال مع أقوى دول العالم ، فلا أكاد أذكر واحدة من كبار الأمم القوية لا يكون فيها فرع من دولة أخرى ، وإنه مفهوم جداً أن عرب فلسطين يفضلون أن تكون فلسطين هي الدولة العربية رقم ٤ أو ٥ أو ٦ ، ولكن عندما يصطدم الطلب العربى بطلب إنقاذ اليهود فإن هذا يشبه الفرق بين طلب الطعام بسبب الشهية وطلبه لتجنب الموت جوعاً » .

وقد ظل جابوتنسكى يعارض التنازل عن أى جزء من « أرض إسرائيل » ويتمسك باسترداد شرق الأردن . وقد رفض مشروع لجنة بيل البريطانية بشأن تقسيم فلسطين وهرب إلى اليهود فيها اسطوانة سجل عليها انتقاداته الشديدة لهذا المشروع . واستمرت الحركة التصحيحية من بعده ترفع شعار أرض إسرائيل على ضفتى نهر الأردن ، وجعل ميناحيم بيجين - تلميذ جابوتنسكى - شعار حزبه « حيروت » خريطة فلسطين شاملة الأردن ، مع بندقية ترمز إلى العزم على استعادتها بالقوة .

بن جوريون والعرب :

عندما سافر دافيد بن جوريون إلى فلسطين عام ١٩٠٦ كان يعيش فيها حوالى ٧٠٠ ألف عربى فلسطينى ، وحوالى ٥٥ ألف يهودى كانوا يقيمون فى المدن الأربع الرئيسية : القدس والخليل وطبرية وصفد وحوالى ٣٠ قرية يهودية .

ويذكر الكاتب الإسرائيلى شبتاى تيبث فى كتابه « بن جوريون والعرب » أن بن جوريون كان يرى فى بداية استقراره هناك أن أرض فلسطين واسعة ، وتكفى الشعبين اليهودى والعربى معا .

وكان يقسم الأراضى قسمين : أراض جرداء غير مأهولة ، وتشكل ما بين ٨٠ و ٩٠٪ من مساحتها ويرى أن يستوطنها اليهود ، أما الأرض الباقية التى يقوم العرب بزراعتها فإنه يمكن أن يشاركهم فيها اليهود ويعاونوهم بأساليب الزراعة الحديثة .

وكان يسعى - تطبيقا لمعتقداته الاشتراكية - إلى حل المشكلة عن طريق التعاون بين العمال العرب واليهود فى إطار نقابى ، وأقيم بالفعل هستدروت عربى مرتبط بالهستدروت اليهودى .

كما كان يعتقد أن أحداث ١٩٢٠ و ١٩٢١ (المصادمات بين الفلسطينيين واليهود) ترجع إلى تحريض الإقطاعيين و « الأفندية » الذين يستغلون الطبقة العاملة ويشيرون الفتنة الدينية لخدمة أغراضهم .

ولكن أحداث ١٩٢٩ أقنعته بأن الحركة الوطنية الفلسطينية أصبحت منظمة ، وتمثل مدأ قوميا يجب أن يعمل اليهود حسابا له .

وكان- كغيره من الصهيونيين- يرى وجوب استمرار الهجرة اليهودية بأعداد كبيرة حتى يستطيع اليهود تحقيق الغالبية السكانية ، ويطالب بضمان حكم ذاتى داخلى للفلسطينيين فى كل الشئون الثقافية والاقتصادية والاجتماعية وإقامة علاقات جوار بينهم وبين الوطن القومى اليهودى الذى سيتحول إلى دولة .

وعقب أحداث ١٩٢٩ ، اتجه تفكيره إلى أنه لكى يطمئن عرب فلسطين على مستقبلهم بعد تحقيق الغالبية السكانية لليهود ، فإنه يجب طمأنتهم وإزالة مخاوفهم من تسلط اليهود عليهم ، وكسب موافقتهم ، بالتالى ، على عمليات الهجرة والاستيطان اليهودية .

وقرر أن يقيم حوارا مع بعض الشخصيات القيادية العربية ، واختار للقاءه الأول موسى العلمى « لأنه يريد عربيا معروفا كعربى وطنى لا يمكن شراؤه بالمال أو الوظيفة ولا يكره إسرائيل » ، (وكانت شقيقة العلمى متزوجة من ابن عم المفتى الحاج أمين الحسينى- الذى كان بن جوريون يمهد للقاءه)- وقابله فى ٢٠ مارس ١٩٣٤ ، كما قابل عونى عبد الهادى ، وفى أبريل ١٩٣٦ قابل جورج أنطونيوس . بدأ بن جوريون الحوار مع موسى العلمى مشيرا إلى ما تحمله الصهيونية من خير وبركة لأرض فلسطين . وكان رد العلمى إن العرب يفضلون أن تبقى هذه البلاد فقيرة قاحلة مائة سنة أخرى حتى يستطيعوا تطويرها بقوتهم الذاتية . وعقب بن جوريون على ذلك فى مذكراته بأنه شعر فى قرارة قلبه بأنه لو كان عربيا لقال نفس الشيء .

أما حواراه مع أنطونيوس ، فقد عرض فيه بن جوريون اقتراح إقامة منطقة يهودية مستقلة فى فلسطين على أن تشكّل جزءاً من اتحاد فيدرالى عربى ، وبذلك- على حد تفكير بن جوريون- يضمن الفلسطينيون العرب عدم تسلط اليهود عليهم . ولما اقترح أنطونيوس عليه وضع حدود للهجرة اليهودية أبدى رفضه القاطع لذلك . وعندما سأله عن إقليم المنطقة اليهودية ، تهرب من إعطاء إجابة واضحة ذاكرا إنها أرض إسرائيل ، فلما استفسر منه عن حدودها أجاب بن جوريون بأن حدودها معروفة فى التاريخ ، فهى أرض تقع بين البحر الأبيض غربا والصحراء شرقا ومن منابع نهر الأردن شمالا إلى سيناء جنوبا . وردا على سؤال أنطونيوس عما إذا كانت تشمل شرق الأردن رد بتأكيد ذلك ، فعقب أنطونيوس قائلاً إنك تقترح أن تحصل من العرب مالم تعطيكه انجلترا ، انها بلد عربية وإن لنا حقا فى السيادة الكاملة . ويختتم بن جوريون مذكراته

عن هذا الحوار ذاكرة أنه أجابه «هذا في سوريا ولكننا كنا من قبل في أرض إسرائيل قبلكم ونحن نعود إلى بلادنا» .

كان اقتراح بن جوريون في ذلك الوقت هو إقامة الدولة اليهودية في فلسطين ، وفتح أبوابها للهجرة غير المحدودة ، مع إقامة اتحاد فيدرالى يضمها هي وشرق الأردن وريما سوريا أو العراق .

وقد نوقشت الفكرة في اللجنة التنفيذية الصهيونية ، وأجريت عدة اتصالات بشأنها مع عدد من الشخصيات العربية خلال الأعوام من ١٩٣٦ حتى ١٩٤١ ، وتبلورت الأفكار الصهيونية في عدد من النقاط أهمها : ارتباط الهجرة اليهودية بقدرة البلاد على الاستيعاب ودون الإضرار بالعرب - وألا يؤدي شراء الأراضي إلى حرمان من يعتمدون على الزراعة كمورد زرعهم - وعدم تسلط أى من الجانبين العربى واليهودى على الآخر بحيث يكون تمثيل كل منهما فى البرلمان والإدارة متساويا . وعلى هذه الأسس تتخذ الصهيونية موقفا إيجابيا من الفيدرالية العربية مع مراعاة المصالح اليهودية ، وتتخذ بريطانيا موقفا مؤيدا للمفاوضات والاتفاق .

وكان من بين الشخصيات العربية التى تم الاتصال بها جميل مردم ، وشكرى القوتلى ، ولطفى الحوار .

غير أن بن جوريون غير موقفه وتخلّى عن فكرة الانضمام إلى فيدرالية عربية ، وعقد مؤتمر بلتيمور عام ١٩٤٢ حيث تقرر إنشاء الدولة اليهودية .

هذا عن محاولات إيجاد تسوية سياسية مع العرب ، وقد كان دافع بن جوريون إلى بذل هذه المحاولات هو تصاعد المقاومة الفلسطينية وبدء تنظيمها ، وهى جميعها لا تنطوى على أى تنازل عن الهدف الصهيونى فى تحقيق الغالبية اليهودية وبسط السيادة على فلسطين .

ولاتختلف نظرة بن جوريون كثيرا عن موقف جابوتنسكى تجاه « المسألة العربية » . فقد كان هو الآخر مقتنعا بفرض المشروع الصهيونى بالقوة . وقد أطلق الهاجاناه لإرهاب عرب فلسطين ، كما كان يتبنى فكرة ترحيلهم أو طردهم قسرا من « أرض إسرائيل » ، ووضع الخطط لتنفيذ هذه الفكرة . وأتاحت له حرب ١٩٤٨ الفرصة لذلك .

ومنذ تولى بن جوريون رئاسة الحكومة الإسرائيلية بعد إعلان الدولة ، انتهج سياسة مناقضة تماما لما نسب إليه شبتاي تيبيت فى كتابه المشار إليه من أنه كان يعتقد أن فلسطين تتسع للشعبين الفلسطينى واليهودى معا ، وكان التطرف السياسى والعسكرى هو السمة المميزة لحكمه الطويل سواء فى مواجهة عرب فلسطين ، أو الدول العربية المجاورة . وعلى أية حال ، فقد انتهى شبتاي تيبيت إلى نتيجة مؤداها أن محاولات بن جوريون لإيجاد صيغة تفاهم مع العرب كانت من قبيل التكتيكات ، وما لبث أن تخلى عنها عندما قويت شوكة اليهود فى فلسطين .

طرد الفلسطينيين :

كان تيودور هيرتزل - شأنه كشأن بقية الزعماء - لا يستبعد فكرة طرد الفلسطينيين ، أو ترحيلهم - رغم تصريحاته وكتاباتاته عن التعايش معهم فى الدولة اليهودية - فقد كتب فى يومياته فى ١٢ يونيو ١٨٩٥ « عندما نحتل الأرض . . سنسعى لتهجير السكان المعدمين عبر الحدود من خلال تدبير الوظائف لهم فى بلاد الانتقال ، لكننا سنمنعهم من القيام بأى عمل فى بلادنا » .

ومن أوائل زعماء الصهيونية الذين جاهروا بالدعوة إلى طرد الفلسطينيين إسرائيل زنجويل ، الذى زار فلسطين سنة ١٨٩٧ ، حيث قال « علينا أن نستعد لطرد القبائل صاحبة الملكية بحد السيف كما فعل أجدادنا » ، وأصبح من أكبر الدعاة لفكرة الترحيل باعتباره - فى رأيه - الشرط المسبق لتحقيق الصهيونية ، وأن النزوح العربى من فلسطين سيبنى على أساس إعادة توزيع عرقى ، أو رحلة كتلك التى قام بها شعب البوير من مستعمرة الكاب « فإذا أردنا أن نعطي بلدا لشعب بلا بلد فمن الحماقة أن يسمح بأن يكون فى هذا البلد شعبان » وشدد زنجويل من حملته بعد صدور وعد بلفور عام ١٩١٧ ، الأمر الذى أثار الأمير فيصل وأخرج حاييم وايزمان (*) .

واقترح آرثر روبين ، مدير دائرة الاستيطان الصهيونى ، فى عام ١٩١١ ترحيلا محدودا للسكان من الفلاحين العرب الذين تنزع منهم الأرض إلى شمال سوريا ، وذلك تمكينا لليهود من شراء الأرض .

(*) . نور الدين مصالحة : طرد الفلسطينيين .

وفى المؤتمر الصهيونى المنعقد فى ألمانيا فى يوليو ١٩١٢ ، اقترح ليون موتسكين حل المشكلة السكانية فى فلسطين فى إطار عربى أوسع بأن يشترط قبول الفلسطينيين الذين يبيعون أراضيهم لإعادة توطينهم فى البلدان العربية المجاورة .

أما حاييم وايزمان ، فقد كتب بعد زيارة إلى فلسطين خطابا إلى ابنه تضمن « أن عرب فلسطين أشبه بصخور منطقة يهودا ، فهم عوائق يجب إزالتها عن هذا الدرب الصعب » . ولكنه كان يدرك مدى حساسية رأى العام البريطانى تجاه التعامل مع « المشكلة العربية » ، ويرى أن إصرار الصهيونيين الذى يدونه علنا على خلق أغلبية يهودية قد تفسره بريطانيا برغبتهم فى طرد العرب .

وعقب المصادمات بين اليهود والفلسطينيين عام ١٩٢٩ ، كانت حجة وايزمان التى أبداهها أمام أعضاء لجنة شوا البريطانية هى أن مشكلة الأرض ما كانت لتنشأ لو لم يفصل شرق الأردن عن فلسطين ، واقترح إجراء تبادل سكانى بترحيل الفلسطينيين إلى شرق الأردن والعراق ، ذاكرا للورد باسفيلد « أن الأزمة بأسرها بدأت فى رأى لأن شرق الأردن فصل عن فلسطين تحت جناح الظلام ، وتم فجأة اقتطاع أكثر من نصف مساحة الأرض ومنع اليهود من استعمارها ، والمؤكد أنه إذا لم يسمح لنا بعبور نهر الأردن فإن فى وسع العرب أن يفعلوا ذلك . والأمر نفسه ينطبق على العراق » .(*) وكتب وايزمان إلى مسئول الوكالة اليهودية طالبا إرسال التفاصيل عن أراض يمكن شراؤها فى شرق الأردن لإعادة توطين من يرحلون إليها .

وتقدم وايزمان باقتراح رسمى عام ١٩٣٠ إلى وزارة المستعمرات البريطانية متضمنا خطة وضعها بنحاس روتنبرج (مؤسس شركة كهرباء فلسطين) تقوم على أساس جمع قرض بمبلغ مليون جنيه فلسطينى لتمويل توطين الفلسطينيين فى شرق الأردن .

وظلت فكرة ترحيل الفلسطينيين إلى شرق الأردن والعراق تتردد فى الأوساط الصهيونية ، وخاصة منذ الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦ . ونوقشت الفكرة فى اجتماعات الهيئة التنفيذية للوكالة اليهودية ، وكان هناك من يؤيدها بحماسة ، ومن رأى أن قبول الفلسطينيين للترحيل لا يمكن أن يتم طوعا . وأقرت الغالبية اقتراح الترحيل الطوعى .

(*) نور الدين مصالحة : المرجع السابق .

وأوصت لجنة بيل البريطانية في تقريرها الذي قدمته في يوليو ١٩٣٧ ، بتقسيم فلسطين إلى دولتين ذاتي سيادة : يهودية ، وعربية ، واقترحت ترحيل حوالي ٢٢٥ ألف عربي من الدولة اليهودية إلى الدولة العربية ، على أساس مبدأ تبادل السكان (في حين أن اليهود الذين كانوا في حدود الدولة العربية المقترحة لم يزدوا عن ١٢٥٠ شخصاً) . ولا شك في أن مقترحات اللجنة جاءت متأثرة بالأفكار الصهيونية ، ولذا فقد قبلها اليهود (مع التحفظ بالنسبة لمساحة الدولة اليهودية) ورفضها العرب .

أما بن جوريون ، فقد ذكر في خطاب ألقاه في ٢٩ يوليو ١٩٣٧ أمام مؤتمر (إيخود بوغالي تسيون) العالمي ، المعقود في مدينة زيورخ (*) « من خلال اقتراح ترحيل السكان العرب من أرض الدولة اليهودية طوعاً إذا أمكن وقسراً إذا استحال ذلك ، يصبح في الإمكان توسيع رقعة الاستيطان اليهودي » . ودافع عن توصيات لجنة بيل في حين عارضت جولدا ماير فكرة التقسيم ، ولكنها وافقت على فكرة الترحيل ، وذلك في المؤتمر الصهيوني العشرين الذي عقد في نفس الشهر .

وقال كابلان ، زعيم الحزب الاشتراكي وأول وزير مالية في إسرائيل في المؤتمر «إنه ليس من الإنصاف في شيء مقارنة اقتراح ترحيل العرب بطرد اليهود من ألمانيا أو أي بلد آخر . فالأمر لا يتعلق هنا بالطرد بل بنقل منتظم لعدد صغير من العرب من رقعة محدودة إلى دولة عربية ، أي إلى جوار أهلهم » .

أما بانكوفر ، عضو كيبوتزرامات هاكوفيتش ، فقد قال « أما فيما يتعلق بالنقل الإجباري للسكان العرب ، فإنني سأكون مسروراً جداً لو كان بالإمكان تحريرنا من جوار سكان مسحة والطيرة وقليلية » وتساءل « هل يوجد أي أمل في أن يوافق العرب ، على هذا الإجراء طوعاً ؟ أية اعتبارات سياسية أو اقتصادية أو قومية تجعلهم يرحلون إلى شرق الأردن الأكثر بؤساً وهجرة الأرض الخصبة والمتطورة التابعة للدولة اليهودية . أما مثال تبادل السكان الذي جرى بين تركيا واليونان ، فليس مجال مقارنة لأنهم كانوا أمام خيار واحد إما مغادرة البلد أو الذبح » .

وأما س . لافى ، فقد ذكر إن مطلب ترحيل العرب ليفسحوا المجال لنا ، مطلب عادل وأخلاقي تماماً ، إذ أن لديهم ما يكفي من الأماكن لينهبوا إليها .

(*) إسرائيل شاحاك . من الأرشفة الصهيونية

وعارض ي . إيد لسون رأى بن جوربون ذاكرة « إن ربط بن جوربون مستقبل استيطاننا فى أرض إسرائيل بعد تقسيمها بإمكانية تفرغها من العرب ، لا علاقة له بالموضوع (أى بقبول مشروع لجنة بيل البريطانية) » . وأوضح الفارق بين الوضع فى فلسطين وبين وضع اليونانيين والأترك ذاكرة إن العرب لن يوافقوا على الرحيل ، كما أننا لانستطيع طردهم بالقوة لأنهم لن يسمحوا لنا بأن نفعل ذلك إذ أن لديهم رهائن منا فى كافة أنحاء العالم وفى الدول العربية المجاورة .

وتساءلت جولدا مايرسون (مائير) عما إذا كانت بريطانيا توافق على عمل من شأنه إثارة العالم الإسلامى كله ، ذاكرة « إننى أوافق على خروج العرب من البلد ، وسيكون ضميرى مستريحا تماما لذلك ، لكن هل تتوافر إمكانية لذلك ؟ » .

وعبر عدد كبير من المشاركين فى المؤتمر الصهيونى عن اعتقادهم بأن تهجير الفلسطينيين له ما يبرره من الناحية الأخلاقية ، ولم يتردد بعضهم فى المطالبة بالترحيل القسرى . ولكن وجد من بينهم من رأى فى تهجير العرب أمرا لا أخلاقيا .

وتقدم سيبلج سوسكين عام ١٩٣٧ ، بخطة للترحيل القسرى للفلسطينيين لا فى السهول فقط ، كما توصى لجنة بيل ، بل فى المنطقة الجبلية كذلك ، حيث يقطن أغلبية سكان الريف العرب ، واقترح إنشاء صندوق للأرض ، وترحيل الفلسطينيين قسرا كخطوة تمهيدية نحو بناء الدولة اليهودية ، ذاكرة أنه يجب أن يتم ذلك بأقصى سرعة ممكنة وفى أقصر وقت ، وإن إعادة توطين سكان الريف العرب ينبغى أن تقدم على أنها عمل إنسانى عظيم ، فالمزارعون سيتحررون من استغلال الأفندية ، وصغار الملاك سوف يمنحون أراض تقسم إلى حصص منفصلة مستقلة « وقد كانت الخطة التى قدمها سوسكين مفصلة ومحددة تكاليفها .

وقامت الوكالة اليهودية بتشكيل اللجان الاستشارية ، ومنها « لجنة ترحيل السكان » ، وقدم أحد أعضائها يوسف فايتس خطة للترحيل فى ديسمبر ١٩٣٧ ، كما قدم عضو آخر هو ألفريد بونيه خطة ثانية فى يوليو ١٩٣٨ .

وفى اجتماعات اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية ، طرح بن جوربون خطة للعمل بعنوان « المهمة الصهيونية للدولة اليهودية » موضحا أن هذه الدولة ستناقش مع الدول العربية المجاورة مسألة الترحيل الطوعى للمزارعين والعمال والفلاحين العرب من الدولة اليهودية إلى الدول المجاورة . وناقش أعضاء اللجنة فكرة الترحيل القسرى ،

وأصر عليها بعضهم (مثل إيلياهو برلين) وذكر بن جوريون بصريح العبارة «إننى أساند الترحيل القسرى، ولا أرى فيه ما ينافى الأخلاق، ولكن انجلترا وحدها هى القادرة عليه» .

وظل يوسف فايتس متعلقا بفكرة الترحيل ومقتنعا بأنه «لا مكان لشعبيين فى هذا البلد، ولكن بعد ترحيل العرب سيصبح البلد مفتوحا أمامنا»، وأخذ يجرى الاتصالات بغيره من زعماء اليسوف (يهود فلسطين) ويتنقل فى أنحاء البلاد ليعاين ما يمكن لليهود الاستيلاء عليه من الأراضى، وواصلت الحركة الصهيونية اتصالاتها الدولية، ووضعت خططاً متعددة منها خطة إدوارد نورمان لترحيل الفلسطينيين إلى العراق .

وكان بن جوريون مقتنعا تماما بفكرة ترحيل الفلسطينيين إلى الدول العربية . وقد عمل على الترويج لخطة تبادل السكان بترحيل عرب فلسطين وشرق الأردن إلى العراق ، وترحيل يهود العراق واليمن وسوريا إلى فلسطين . وقابل فى أواخر عام ١٩٤٣ هربرت هوفر رئيس الولايات المتحدة السابق الذى اقتنع بأفكار بن جوريون وقدم إلى البيت الأبيض «خطة هوفر» للتبادل السكانى بين فلسطين والعراق .

وإذ كان بن جوريون يؤمن بسياسة المراحل ، ويرى أن الحروب والأزمات تخلق فرصا ذهبية لمن يحسن استغلالها لمصلحته ، فقد وجد الفرصة سانحة فى ظروف الاشتباكات التى أعقبت صدور قرار التقسيم فى نوفمبر ١٩٤٧ ، ثم فى الحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٤٨ ، لتنفيذ أفكاره .

فقد كان مخصصا للدولة اليهودية فى قرار التقسيم ٥٥٪ من مساحة فلسطين فاستولت قواته على ٧٧٫٤٠٪ من مساحتها .

وكان من المفروض - طبقا لذلك القرار - أن يعيش ٤٩٧ ألف عربى فى حدود الدولة اليهودية ، فنفذت «خطة دالت plan D» لطرد أكبر عدد من الفلسطينيين ، وكانت الخطة التى اعتمدتها القيادة العليا للهاجاناه - فى مارس ١٩٤٨ - التى أعدت منذ عام ١٩٤٤ - تقضى بالاستيلاء على النقاط الرئيسية والطرق قبل رحيل البريطانيين ، وتقوم على أسس توسيع الدولة اليهودية إلى أبعد من حدود التقسيم ، ونسف وحرق وتدمير القرى العربية وطرد السكان منها إلى خارج الحدود ، وإذا واجهت القوات اليهودية أية مقاومة .

وهكذا فر ٧٥٠ ألف فلسطينى إلى خارج البلاد ، ونشأت مشكلة اللاجئين التى لا تزال مستعصية على الحل منذ خمسين عاما .

دولة إسرائيل وعرب فلسطين :

أعلن دافيد بن جوريون قيام دولة إسرائيل فى ١٥ مايو ١٩٤٨ ، صبيحة انتهاء الانتداب البريطانى على فلسطين . وبدأت الحرب العربية الإسرائيلية الأولى .

وما إن انتهت الحرب حتى بدأ بن جوريون يرسى قواعد الدولة اليهودية . وكان قد فر منها ٧٥٠ ألف فلسطينى ، ولجأوا إلى الدول العربية المجاورة ، فأعلن مؤسس الدولة قراره القاطع بعدم قبول عودتهم إلى منازلهم وممتلكاتهم التى تركوها ، رافضا الإذعان لقرار الأمم المتحدة بإعادتهم ، ولا التخلي عن الأراضى التى احتلتها إسرائيل خلافا لقرار تقسيم فلسطين وتدويل منطقة القدس . وقام الملك عبد الله بضم ما تبقى من أرض فلسطين .

واستولت إسرائيل على ممتلكات الفلسطينيين الفارين ، وأسكنت المهاجرين اليهود فى بيوتهم وأعطتهم مزارعهم . وأصدرت قانون أملاك الغائبين الذى يضع هذه الأملاك تحت تصرف قيم يملك التصرف فيها ، واعتبرت غائبا أى فلسطينى غادر محل إقامته يوم صدور قرار تقسيم فلسطين (فى نوفمبر ١٩٤٧) أو بعد ذلك (ولو كان لا يزال فى مكان آخر بفلسطين) .

وفى الوقت الذى حرمت فيه أى لاجئ فلسطينى من العودة ، فإنها بمقتضى قانون العودة اعتبرت من حق أى يهودى ، فى أى مكان فى العالم أن يهاجر إلى إسرائيل ويحمل جنسيتها .

أما من تبقى من عرب فلسطين ، فقد فقدوا هويتهم وأصبحوا يحملون الجنسية الإسرائيلية ويخضعون لقوانينها . وبالرغم مما نصت عليه القوانين الأساسية الإسرائيلية من المساواة بين المواطنين ، فقد ظلوا خاضعين للحكم العسكرى حتى عام ١٩٦٤ ، إذ اعتبرهم بن جوريون طابورا خامسا عربيا ، وأحكم وضعهم داخل طوق أمنى رهيب فهم لا يتحركون من مكان إلى آخر إلا بعد إجراءات تحقيق تعسفية ، وتختلق المعاذير لطردهم ، أو الاستيلاء على أموالهم ، ولا يتمتعون بأى من الحريات

الإنسانية ، ويقدمون لمحاكم عسكرية لا تتوافر فيها أية ضمانات قضائية . وقامت إسرائيل بهدم عدد كبير من القرى العربية (من بينها قرية عكرية ، وقرية كفر برعيم ، وقرية الطيرة) .

وصادرت مساحات شاسعة من الأراضي العربية ، مستخدمة لذلك كل الأساليب القانونية ومنها لوائح الطوارئ العسكرية ، وقانون تملك الأراضي ، فضلا عن قانون أملاك الغائبين ، ومستغلة الأوضاع السابقة حيث كانت معظم الأراضي التي يمتلكها الفلسطينيون غير مسجلة .

وهكذا بنيت الدولة اليهودية على حساب الأراضي الفلسطينية التي لم تكن الصهيونية قد تملك سوى ٦٪ منها ، واستولت على الدومين العام لبلد ظل العرب ينشئون طوال ثلاثة عشر قرنا من الزمان .

الفصل الخامس

أرض إسرائيل التاريخية

تحديد الهدف الصهيوني :

حدد المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في مدينة بازل السويسرية في ٢٩ أغسطس ١٨٩٧ ، هدف الحركة الصهيونية بـ « إنشاء وطن لليهود في فلسطين ، معترف به في القانون العام » .

وقد تفادت الحركة استخدام عبارة « إنشاء دولة لليهود » لأسباب دبلوماسية خشية إثارة اعتراضات الدول - وخاصة الامبرطورية العثمانية - على هذا الهدف .

وأسست « المنظمة الصهيونية العالمية » ، وحددت المحاور الأربعة التي تعمل على أساسها من أجل إقامة الدولة ، وهي : الهجرة والاستيطان - وتنظيم اليهود في منظمات محلية ودولية - وتنمية الشعور القومي اليهودي - والحصول على الموافقة الحكومية اللازمة .

ومن أجل تمويل عمليات الاستيطان ، أنشأت الحركة في مؤتمرها الأول «صندوق الائتمان اليهودي للاستثمار» ، و « الصندوق القومي اليهودي » لشراء الأراضي وتأجيرها للمستوطنين .

وواصلت المنظمة الصهيونية عقد مؤتمراتها ، وفرضت في المؤتمر الثاني ضريبة عضوية (تسمى الشاقل) ، وتلقت في مؤتمراتها التالية تقارير تيودور هيرتزل عن مساعيه للحصول على الوطن القومي ، ووافقت على إنشاء المستوطنات التعاونية (الكيبوتس والموشاف) في فلسطين . ومنذ صدور وعد بلفور وإقامة الانتداب البريطاني على فلسطين ، بدأت الوكالة اليهودية تعمل بالتعاون مع السلطات البريطانية من أجل بناء الدولة اليهودية تحت إشراف المنظمة، التي تولت إرسال أفواج

المهاجرين إلى الأراضي الفلسطينية وشراء الأراضي واستيطانها ، وإجراء الاتصالات مع الحكومة البريطانية وغيرها من الحكومات .

وقبيل إعلان قيام دولة إسرائيل في مايو ١٩٤٨ ، بلغ عدد اليهود في فلسطين ٦٣٢ر٦٤٩ ، وقدرت ملكيتهم للأراضي بحوالى ٦٪ من مساحة البلاد .

توفير الحماية الدولية :

كان على تيودور هيرتزل أن يحصل على موافقة الباب العالي العثماني على إقامة الوطن القومي في فلسطين التي كانت جزءاً من الامبراطورية العثمانية . واتجه تفكيره في أول الأمر إلى ألمانيا التي رآها أصلح الدول الكبرى لبسط الحماية على الوطن القومي اليهودي ، ففضلا عن أن معظم زعماء الحركة الصهيونية من الناطقين بالألمانية ، فإن ألمانيا كانت تربطها بالباب العالي علاقات ممتازة ، ومن ثم فإن القيصر ويلهيلم يمكنه إقناع السلطان عبد الحميد بالمشروع الصهيوني .

وتمكن هيرتزل من مقابلة قيصر ألمانيا أثناء زيارته لاستانبول ، و ظن أنه أقنعه بأن مشروعه سوف يخلص القيصر من اليهود غير المرغوب في بلاده . ولكن ظنه لم يكن في محله .

ثم سعى هيرتزل لمقابلة السلطان عبد الحميد ليعرض عليه صفقة شقها الأول هو أن يشتري اليهود ديون الباب العالي ، والشق الآخر هو أن يوافق السلطان على إعطاء امتياز charter لشركة يهودية تقوم باستيطان الأراضي الفلسطينية . ولكن السلطان العثماني لم يقبل بأكثر من إعلان حماية اليهود في امبراطوريته بشرط ألا يقيموا في فلسطين . وكان على الحركة الصهيونية أن تنتظر حتى الانقلاب الذي أسقط السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٨ لتدفع بعمليات الهجرة والاستيطان في ظل إدارة عثمانية أكثر تجاوبا مع المشروع الصهيوني .

وعندما مضى الوقت دون أن يتمكن هيرتزل من تحقيق هدف المنظمة ، وكاد صبر أعضائها أن ينفد ، تخلى عن محاولة الحصول لها على فلسطين ، واتجه بمساعيه إلى بريطانيا حيث تمكن من مقابلة جوزيف تشمبرلين ، وعرض عليه استيطان اليهود في قبرص ، أو في منطقة العريش المصرية . ورفض تشمبرلين فكرة الاستيطان في قبرص

وأبدى موافقته على العريش . وسافر هيرتزل إلى مصر فى مارس ١٩٠٣ ، كما توجهت بعثة من الخبراء اليهود إلى العريش ، ولكنها وجدت أن المنطقة تنقصها المياه اللازمة للاستيطان . كما أبلغ اللورد كرومر الزعيم الصهيونى برفض الحكومة المصرية برئاسة بطرس غالى لمشروعه .

ثم عرض تشمبرلين على هيرتزل منطقة فى المستعمرات البريطانية فى شرق أفريقيا (سمى بمشروع أوغندا خطأ إذ كانت المنطقة فى كينيا) وبالرغم من المعارضة الصاخبة فى المؤتمر الصهيونى لهذا الاقتراح ، فقد قرر المؤتمر دراسة إمكانيات الاستيطان هناك ، ولكن بريطانيا تراجعت فيما بعد عن اقتراحها . وتوفى هيرتزل فى يوليو ١٩٠٤ دون أن يحقق هدف المنظمة .

ولم يتحقق الاعتراف والحماية للمشروع الصهيونى إلا نتيجة لمساعى حاييم وايزمان بصدور وعد بلفور فى ٢ نوفمبر ١٩١٧ .

وظلت حماية الدولة الكبرى ركنا أساسيا فى الاستراتيجية الصهيونية - سواء قبل إنشاء إسرائيل أو بعده - فقد تطلعت الحركة إلى ألمانيا فى بادئ الأمر ، ثم تحولت إلى بريطانيا التى أصبحت الدولة الأعظم فى أوربا بعد قيام الحرب العالمية الأولى ، وعندما بدأ نجم الامبراطورية البريطانية فى الأفول بعد الحرب العالمية الثانية ، نقلت الحركة الصهيونية مركز نشاطها إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، التى مازالت الحليف الأكبر لإسرائيل ، والتى تقدم لها الدعم السياسى والاقتصادى وتكفل لها التفوق الحربى على الدول العربية مجتمعة .

حدود أرض إسرائيل :

تعتبر الحركة الصهيونية أرض إسرائيل التاريخية شاملة فلسطين بأكملها - بما فيها شرق الأردن - والجولان وجنوب لبنان .

وقد قدمت خريطتها التى تشمل كل تلك الأراضى إلى مؤتمر السلام فى باريس عام ١٩١٩ . وعندما اقتطعت بريطانيا شرق الأردن لإقامة إمارة عربية فيها واستثنتها من نطاق الوطن القومى اليهودى ، سلمت الحركة الصهيونية بالقرار البريطانى مضطرة وظلت استعادتها هدفا تسعى لتحقيقه ، وجعلت الصهيونية التصحيحية هذا الهدف

شعارا ثابتا لها يرفعه حزب حيروت . ومع تصاعد الضغوط الدولية من أجل ممارسة الشعب الفلسطيني لحقه في تقرير المصير وإقامة دولته ، حدث بعض التطور في الموقف الصهيوني فاعتبر شرق الأردن هي الدولة الفلسطينية ، فهي - في رأيها - تضم سكانا أكثر من نصف عددهم من الفلسطينيين ، وبقيتهم من نفس الجنس العربي بعاداته وتقاليده ، أما علاقات الفلسطينيين بالحكم الأردني فهي مشكلة العرب ولا دخل لإسرائيل بها .

وأما الجولان وجنوب لبنان ، فقد كانا - في رأيها - جزءا من مملكة إسرائيل التاريخية ، ولاغنى للدولة اليهودية عنهما ، وخاصة لضرورة سيطرتها على مصادر المياه التي تحتاجها لتطوير الحياة فيها .

ولم يكن قبول الحركة الصهيونية لمشروع لجنة بيل البريطانية بشأن تقسيم أراضي فلسطين بين اليهود والعرب إلا قرارا مرحليا دافع عنه بن جوريون على أساس استكمال أرض إسرائيل عندما تسمح الظروف بذلك .

كما كان قبول قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٨١ لسنة ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين قبولاً مرحلياً من جانب الحركة الصهيونية ، وما لبثت القوات اليهودية أن توغلت في الأراضي المخصصة للدولة العربية بهدف اقتطاع أجزاء منها . ولما دخلت القوات العربية فلسطين ودار القتال على أراضيها ، ووجد بن جوريون الظروف سانحة لتوسيع رقعة الدولة ، ورسمت حدود إسرائيل وفقاً للمواقع التي بلغت قواتها .

ومع ذلك ، فإن خطوط الهدنة لم تحقق لإسرائيل الهدف الصهيوني في الاستيلاء على « أرض إسرائيل التاريخية » ، ومن هنا بدأ بن جوريون في تنفيذ سياسته التوسعية تجاه الدول العربية المجاورة لتحقيق ذلك الهدف .

بدأ بن جوريون بالاستيلاء على المناطق المنزوعة السلاح والعازلة ، منتهكا اتفاقات الهدنة ، واستولت قواته على قرية أم رشرش الأردنية بهدف الوصول بحدود إسرائيل إلى البحر الأحمر ، وأقام فيها ميناء إيلات . وشن حملة السويس ضد مصر عام ١٩٥٦ ، بالتآمر مع بريطانيا وفرنسا ، وسرعان ما أعلن ضم سيناء وقطاع غزة باعتبارهما - في رأيه - أجزاء من أرض إسرائيل التوراتية .

وعندما وصلت القوات الإسرائيلية ، في حرب ١٩٦٧ ، إلى الضفة الشرقية لقناة السويس ، ومرتفعات الجولان ، ونهر الأردن ، وجدت إسرائيل فرصة عمرها في

رسم حدودها لأرض إسرائيل ، ورأت فيما نص عليه قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ بحسب تفسيرها سنداً لما تدعيه من ضرورة الاتفاق على حدود آمنة ومعترف بها بينها وبين الدول العربية .

وتزداد المشكلة تعقيداً بدخول الأصوليين من رجال الدين والسياسة في معترك المناقشات حول حقيقة حدود أرض إسرائيل التوراتية .

ففى رأى يهودا إليتسور - أحد كبار علماء جوش إيمونيم - أن هذه الحدود تمتد حتى نهر الفرات وجنوب تركيا وشرق الأردن ودلتا النيل . ويرى إسرائيل أريئيل أن أرض إسرائيل تشمل لبنان حتى طرابلس وأجزاء من سوريا والعراق ، كما تشمل سيناء .

وهذا التوسع - فى رأيهم - فريضة دينية على اليهود . فالحاخام يهودا كوك يفتى بأن «الله قد أمرنا بأن نستولى على الأرض ونستوطنها ، ومعنى الاستيلاء هو الغزو - فأدأنا لفريضة الغزو هو الذى يمكننا من أداء فريضة الاستيطان» .

وقد بادر بعض الحاخامات إلى إيجاد التأويلات المؤيدة للاحتفاظ بسيناء عام ١٩٦٧ ، والاستيلاء على لبنان عقب غزوها عام ١٩٨٢ ، فى حين رأى البعض عدم التعجل فى ضم هذه الأراضى . أما رأى السائد لدى الأصولية اليهودية ، فهو أن مهمة الجيل الحالى هى بسط سيطرة إسرائيل الدائمة على « يهودا والسامرة » وقطاع غزة والجولان . وهى ترى أن هدف إقامة علاقات حسن الجوار مع عرب فلسطين هدف وهمى ، بل إنه يتعارض كذلك مع معنى المشروع الاستيطانى اليهودى .

ولاتختلف مواقف الأصولية اليهودية ، واليمين الإسرائيلى بشأن « أرض إسرائيل » ، وضرورة الاستيلاء عليها كثيراً عن مواقف بعض زعماء الصهيونية سوى فى التكتيكات التى تتبع لتحقيق هذا الهدف .

ومن كلمات بن جوريون المأثورة كما ذكرنا « إن الحروب والأزمات تخلق فرصاً ذهبية لمن يحسن الاستفادة منها لتحقيق أهدافه » .

وقد أحسن الزعيم الصهيونى الاستفادة من الحروب والأزمات لمصلحة إسرائيل ، بل إنه خلق الأزمات ، وشن الحروب كلما رأى فى ذلك فرصاً للتوسع .

واتبع فى ذلك سياسة مرحلية ، ففى ظل الحرب العالمية الثانية عقد مؤتمر بلتيمور ليقرر إنشاء دولة إسرائيل ، واستغل ظروف الحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٤٨

لتوسيع رقعة الدولة ، وشن حرب ١٩٥٦ بأمل تحقيق مزيد من التوسع وفتح طرق المواصلات البحرية أمام الملاحة الإسرائيلية . ولكنه أثر قبل ذلك قبول مشروع لجنة بيل البريطانية ثم قرار الأمم المتحدة بشأن تقسيم فلسطين عندما وجد أن الظروف القائمة لا تسمح إلا بحصول اليهود على أجزاء من « أرض إسرائيل التاريخية » .

أما أداة الصهيونية في تحقيق مخططاتها ، فهي القوة العسكرية . فقد أدرك زعمائها منذ وقت مبكر أن العرب لن يقبلوا مخططاتها ، ووجدوا مقاومة لهم له أمرا طبيعيا . فليس معقولا أن يقفوا مكتوفي الأيدي أمام من يفرضون عليهم تحويل وطنهم - بالهجرة والاستيطان - إلى دولة يهودية . ومن هنا كان الاهتمام الأول للحركة الصهيونية بتشكيل جيش يهودي قوى وقادر على ردع عرب فلسطين ، والوقوف في مواجهة الدول العربية التي تدافع عنهم .

كما كان حرص الحركة الصهيونية الدائم على أن تحظى بدعم دولة - أو دول - كبرى ، تؤيدها سياسيا وتزودها بما تحتاجه من السلاح ، مع احتفاظ الصهيونية بحرية الحركة لتنفيذ مخططاتها .

المنظمات الإرهابية الصهيونية :

كانت حراسة المستوطنات اليهودية في فلسطين موكولة في أواخر القرن الماضي إلى عناصر من العرب والشركس . ومنذ موجة الهجرة الثانية لليهود عام ١٩٠٤ ، اتجه تفكير المهاجرين إلى إقامة حراسة عبرية تطبيقا لمبدأ الطهارة اليهودية ، وأقيمت نقابة الحارس « هستدروت هاشومير » عام ١٩٠٩ ، إلا أنها قامت بحل نفسها عام ١٩٢٠ ، بسبب الصعوبات التي واجهتها مع الحكومة التركية وحلت محلها « الكتائب العبرية » .

وفي أجواء الحرب العالمية الأولى ، اتجهت الحركة الصهيونية إلى نشر الروح العسكرية لدى الجاليات اليهودية . ونجح جابوتنسكى في تشكيل كتيبة سائقى البغال بقصد إعداد اليهود وتدريبهم على القتال ليكونوا في المستقبل نواة للجيش اليهودي .

وبعد أن انتقلت المقاومة الفلسطينية إلى مرحلة النضال المسلح عام ١٩٢٠ ، بدأت الحركة الصهيونية تعدّ يهود فلسطين للدفاع عن أنفسهم وردع الفلسطينيين بالقوة ، وخاصة بعد أن وقعت الاشتباكات المسلحة بين الجانبين بمناسبة احتفالات

الفلسطينيين بموسم النبي موسى في ٤ أبريل ١٩٢٠ ، وسقط فيها عدد من القتلى والجرحى من الجانبين في القدس ويافا .

وأقيمت منظمة الهاجاناه في عام ١٩٢١ ، وأصبحت أداة الوكالة اليهودية التي استخدمتها ضد العرب والبريطانيين على السواء ، بالرغم من أن سلطة الانتداب البريطاني لم تبخل عليها بالتدريب والسلاح .

فقد تصاعدت المقاومة الفلسطينية المسلحة ، ووقعت اشتباكات متعددة بينها وبين اليهود في أعوام ١٩٢٩ (ثورة البراق) بسبب النزاع على حائط المبكى ، و ١٩٣٣ (ثورة عز الدين القسام) ، ومن ١٩٣٦ حتى ١٩٣٩ (الثورة الشاملة والإضراب العام المستمر) .

وأدركت بريطانيا أن إقامة الوطن اليهودي رغما عن العرب مهمة مستحيلة ، فأصدرت كتابها الأبيض في يونيو ١٩٢٢ ، لتوضح فيه أن وعد بلفور لا يعنى إقامته في فلسطين كلها ، وفصلت شرق الأردن لتقام فيه إمارة عبدالله ، واعتبرت الصهيونية هذا الموقف بداية للخيانة البريطانية ، ثم طرحت لجنة بيل عام ١٩٣٧ مشروعا لتقسيم فلسطين بين العرب واليهود والبريطانيين فرفضه العرب وقبله اليهود . وفي عام ١٩٣٩ أصدرت بريطانيا الكتاب الأبيض ، متضمنا عزمها على إقامة حكومة فلسطينية مستقلة خلال عشر سنوات ، يساهم فيها العرب واليهود بشكل يضمن مصالح الطرفين - وتحديد الهجرة اليهودية في حدود ٧٥ ألفا خلال خمس سنوات - ووضع قيود على بيع الأراضي العربية .

وكان الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩ نقطة التحول في علاقات الصهيونية مع بريطانيا ، فقد رفضته ، وإن كانت دخلت الحرب العالمية الثانية في صفوفها . وعندما تمسكت بريطانيا بالوقوف في وجه الهجرة اليهودية غير المشروعة ، أعلن بن جوريون وميناحيم بيجين الحرب الإرهابية على البريطانيين والعرب على السواء .

وكانت منظمة الهاجاناه قد أقيمت نتيجة قرار اتخذه حزب أحداث هعفودا بعد أن فشل جابوتنسكى وقوته في الدفاع عن اليهود في الأحداث التي وقعت في القدس في ذلك العام . وخضعت خلال العشرينات للهستدروت (النقابة العامة للعمال اليهود) . وتضمن دستور الهاجاناه أنها منظمة عسكرية سرية للدفاع عن اليشوف (يهود فلسطين) . واتخذت منها الإدارة الصهيونية موقفا متحفظا بسبب رفضها تسليم أسلحتها إلى سلطة الانتداب البريطاني كطلبها ولكن هذا التحفظ زال مع مرور الوقت . وكونت الهاجاناه قوة ضاربة منها باسم « بالماخ » .

وبدأ جابوتنسكى حملته لإقامة ما أسماه بالجدار الحديدي ، مطالباً باعتراف بريطانيا بالقوة العسكرية اليهودية ، التي كان يرى وجوب تكوينها في شكل جيش نظامي . وكان يتساءل عن سبب تحمل دافع الضريبة البريطاني مسئولية الدفاع عن اليهود في فلسطين ، ذاكراً أن الحركة الصهيونية هي المسئولة وحدها عن تقديم الرجال والمال اللازمين لتحقيق أهدافها السياسية ، وأن هذا شرط مسبق لأي مشروع استيطاني . وفي عام ١٩٢٣ ، أسس حركة بيطار للشباب اليهودي بهدف تدريبه وإعدادة عسكرياً : كما أسس منظمة إريجون زفاي ليومي (المعروفة بإريجون أو إيتسل) عام ١٩٣١ . وانشق عن الهاجاناه رئيسها ابراهام تهومي ليؤسس ما عرف « بالهاجاناه ب » . وذلك على أثر الانتفاضة الفلسطينية عام ١٩٢٩ . فقد كان تهومي يطالب بعسكرة الهاجاناه ومنحها مزيداً من الاستقلال عن الهستدروت ، ونشر الثقافة القومية بين أعضائها ، وعرض على جابوتنسكى إقامة منظمة عسكرية جديدة ، ولكن الأخير رفض العرض .

أما جابوتنسكى وحركته التصحيحية فقد شنوا هجوماً شديداً على الهاجاناه متهمين إياها بالجنوح إلى السلام . وقد زادت حدة العداء بينهم وبين الهستدروت والهاجاناه بعد حادث مقتل حايم أرلوزوروف في يونيو ١٩٣٣ ، واتهام ثلاثة من أعضاء الحركة التصحيحية بقتله (وكان أرلوزوروف رئيس الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية) .

وعندما اندلعت الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦ ، رأت الوكالة اليهودية انتهاج ما عرف بسياسة ضبط النفس (هفلغاه) . أما المنظمة ب ، فقد انضمت إليها عدد كبير من أنصار الصهيونية التصحيحية وحركة بيطار ، واثارت الخلافات داخل صفوفها بسبب سياسة ضبط النفس . وتحدث إيتسل هذه السياسة وتزايد نشاطها الإرهابي الموجه ضد العرب ، فهاجمت الحافلات (الأتوبيسات) العربية ، ووضعت المتفجرات في التجمعات العربية ، وأودت بحياة الكثيرين . كما قامت الهاجاناه ببعض الاعتداءات على العرب .

ومنذ صدور الكتاب الأبيض البريطاني عام ١٩٣٩ ، خرجت الهاجاناه على سياسة ضبط النفس ، وقامت هي وإيتسل بعدة عمليات ضد البريطانيين . وبالرغم من فشل المفاوضات بين المنظمتين بشأن اندماجهما ، فإن التنسيق كان قائماً بينهما .

وقد قبل الكتاب الأبيض الذي أصدرته بريطانيا عام ١٩٣٩ ، (والذي حدد عدد

المهاجرين ووعده بإقامة دولة فلسطينية (بمعارضة شديدة من اليهود ، واعتبروا بريطانيا قد تخلت نهائيا عن دورها في إقامة الوطن القومي اليهودي . ولكن نشوب الحرب حمل بن جوريون على إطلاق شعاره المعروف « سنشارك في الحرب (ضد المحور) كما لو كان الكتاب الأبيض غير موجود ، ونحارب الكتاب الأبيض كما لو كانت الحرب غير موجودة » .

وفي يونيو ١٩٤٠ ، أسست منظمة ليحي ، وكان من أهدافها طرد سلطة الانتداب وترحيل الفلسطينيين خارج بلادهم . وأجرت اتصالات مع ألمانيا النازية محاولة الاتفاق معها على التعاون ضد البريطانيين ، مقابل تخفيف الضغوط الألمانية على اليهود في أوروبا ، ولكن ألمانيا لم تقبل العرض .

وظلت الأوضاع هادئة بوجه عام في فلسطين خلال الحرب العالمية الثانية ، إلا أن تمسك بريطانيا بالكتاب الأبيض ، ووقوفها في وجه الهجرة اليهودية غير المشروعة حملت ميناحيم بيجين الذي تولى قيادة إيتسل منذ نوفمبر ١٩٤٣ على إعلان التمرد على سلطة الانتداب . وقامت المنظمة بعدة عمليات ضد المنشآت العسكرية ومراكز البوليس والضباط والجنود البريطانيين ، وكان من أشهرها نسف فندق الملك داود ، حيث مقر القيادة البريطانية ، والتي أسفرت عن مقتل ٩١ وإصابة الكثيرين . وكان الاعتداء مخططا له بالتنسيق مع الهاجاناه ، ولكنها سحبت موافقتها قبل ارتكابه .

واتجهت سياسة بن جوريون إلى تخويف العرب وإرهابهم ، فبعث في يونيو ١٩٤٧ بتعليماته إلى قيادة الهاجاناه يلفت نظرها إلى الخطر العربي ، فقامت بعدة عمليات إرهابية ضد الفلسطينيين . وأصبحت منذ صدور قرار التقسيم تطبق سياسة مرسومة لاقطاع أجزاء من الأراضي المخصصة للدولة العربية في القرار ، وترويع العرب وطردهم خارج بلادهم . واستمرت بقية المنظمات في عملياتها الإرهابية مساهمة منها في تطبيق هذه السياسة ، ومن أشنع هذه العمليات المذبحة التي ارتكبتها إيتسل وليحي في دير ياسين في ١٩ أبريل ١٩٤٨ ، بهدف إخلاء تلك القرية وفتح طريق القوات اليهودية إلى القدس . وقد راح ضحية هذه المذبحة أكثر من ٢٥٠ قتيلا من الرجال والنساء والأطفال ، واضطرت الوكالة اليهودية إلى إعلان إدانتها لها بسبب رد الفعل العالمي الذي استهجن هذه الوحشية .

كان هناك توزيع للأدوار بين تلك المنظمات بسبب انتماء الهاجاناه إلى الوكالة اليهودية ، وحرص الأخيرة على مركزها الرسمي تجاه سلطة الانتداب البريطانية .

إرهاب الدولة :

لم يضع إنشاء دولة إسرائيل حداً لاستخدام سلاح الإرهاب ، بل انتقل إلى يد الحكومات الإسرائيلية .

كان اللاجئون الفلسطينيون الذين طردوا من ديارهم ومزارعهم يرون تلك الديار والمزارع وقد استولى عليها اليهود ، فإذا ما حاول أحدهم التسلل إليها ، ووجه بوابل من رصاص القوات الإسرائيلية ، ودفعت الدولة العربية التي يتسللون من أراضيها ثمنا باهظا في عمليات عسكرية مكثفة تقوم بها تلك القوات انتقاما من عمليات التسلل الفردية .

وانتهج بن جوريون وديان استراتيجية عسكرية تقوم على أساس الضربات المفاجئة العنيفة والانتقام الشديد بهدف إرهاب العرب وحملهم على التسليم بمكاسب إسرائيل على الأرض وبموافقها من رفض تنفيذ قرارات الأمم المتحدة بشأن التقسيم وعودة اللاجئين .

ولم تقلع إسرائيل عن اتباع سياسة الإرهاب رغم الإدانات المتتالية من لجان الهدنة ومجلس الأمن ، سواء بسبب اعتداءاتها على قرية قبية (٧٥ قتيلا) أو نحالين (١٤ قتيلا) أو غزة (٣٨ قتيلا) أو خان يونس (٤٦ قتيلا) أو الصابحة (٥٩ قتيلا) أو البطيحة (٢٨ قتيلا) أو قلقيلية وعزوم والنبي إلياس وخان صوفين (٤٨ قتيلا) والسموع (١٨ قتيلا) وغيرها ، بل إنها تصاعدت في عدوانها فشنت حرب السويس (العدوان الثلاثي) عام ١٩٥٦ وحرب ١٩٦٧ .

وأسهمت أجهزة المخابرات وقوات الكوماندوز الإسرائيلية بدورها الإرهابي للتخلص من قيادات منظمة التحرير في لبنان وتونس وفي العواصم الأوروبية ، وملاحقة العلماء الألمان في مصر بالخطابات المتفجرة ، وهدم المفاعل العراقي النووي في أوزيراك في غارة شنتها عليه .

ومن الغريب أن إسرائيل ، التي كانت أولى الدول التي جعلت الإرهاب واحدا من أسلحتها بين دول الشرق الأوسط ، أصبحت هي التي تنزع الحملة على ما تسميه بالإرهاب الإسلامي ، وتعمل على تأليب دول العالم ضد ما تعتبره العدو الأكبر منذ انهيار الشيوعية ، وكأنما الإرهاب قاصر على المسلمين وليس ظاهرة دولية تصيب

الدول العربية والإسلامية أيضا . بل إن جانبا مما تصفه إسرائيل بالإرهاب ما هو إلا رد فعل للمظلم الفادح الذى أوقعته الدولة العبرية بالفلسطينيين ، واحتلالها للأراضي العربية لثلاثين عاما ، وسياستها التوسعية التى لاتزال حتى اليوم متمسكة بها لتحقيق الحلم الصهيونى بإقامة دولة اليهود على أرضهم التاريخية التى يتبارى الأصوليون منهم فى رسم حدودها بعيدا فى أراضي الدول العربية المجاورة .

والواقع أن القوة العسكرية ظلت منذ بداية الحركة الصهيونية هى أداة تحقيق الهدف الصهيونى ، وقد رسم المخطط منذ مائة عام ، واتبعت المرحلية فى تنفيذه بحيث يتواصل التنفيذ مرحلة بعد أخرى ، بحسب الظروف القائمة أو التى تخلقها إسرائيل بشن الحروب أو اختلاق الأزمات .

وقد كانت إسرائيل أولى الدول التى أدخلت الأسلحة الذرية فى الشرق الأوسط ، الأمر الذى يهدد المنطقة بانتشار أسلحة الدمار الشامل فى كافة دولها ، وقد رفضت المقترحات التى تقدمت بها مصر من أجل إخلاء المنطقة من هذه الأسلحة ، كما رفضت الانضمام إلى معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية ، أو إخضاع مفاعل ديمونة للتفتيش ، وذلك من أجل الاحتفاظ لنفسها بالخيار النووى كسلاح ردع لإرهاب الدول العربية .

الفصل السادس النصر المعجزة والزلازل الكبير

الحدود الآمنة :

كان انتصار القوات الإسرائيلية في حرب ١٩٦٧ يفوق كل خيال .
فقد هزمت قوات ثلاث دول عربية ، ووصلت إلى الضفة الشرقية لقناة السويس ،
واحتلت مرتفعات الجولان السورية ، واستولت على الضفة الغربية لنهر الأردن بما
فيها القدس الشرقية .

وساد لدى كثير من اليهود الاعتقاد بأن هذا النصر معجزة من السماء ، حققها إله
إسرائيل لشعب إسرائيل على أيدي جنود إسرائيل .

كان الحاخام تسفى يهودا كوك قد وقف منذ أقل من شهر يلقي خطابه في الجماهير
الإسرائيلية احتفالاً بالذكرى تأسيس دولة إسرائيل ، وقال في خطابه :

« منذ تسعة عشر عاما ، وفي نفس الليلة التي صدر فيها قرار الأمم المتحدة بإنشاء
إسرائيل ، وبينما كان الشعب بأسره يحتفل ، كنت غير قادر على مشاركة الناس
سعادتهم ، وجلست وحيداً صامتاً ومنقبضاً . في تلك الساعات الأولى كنت لا
أستطيع قبول ما حدث ، ذلك النبا الرهيب أن أرضي قد قسموها . نعم . أين الخليل ،
هل نسيناها ؟ وأين شيشم (نابلس) وأريحا هل ننساها ؟ وشرق الأردن بأكمله . .
إنه كله لنا ، كل قطعة من الطين وكل جزء من أرض الله . هل من سلطتنا أن نتنازل
عن مليمتر واحد منها ؟ »

وعندما تحقق لإسرائيل النصر الذي لم تستول به على الخليل ونابلس وأريحا
فحسب ، بل على القدس والضفة الغربية بأكملها ، وبلغت قواتها به مشارف قناة

السويس ووقفت على بعد كيلو مترات قليلة من دمشق ، عاش الشعب الإسرائيلي فى أجواء من الغيبيات لا يكاد يصدق الواقع .

وعقب الحاخام كوك على هذا النصر ، بعد أن تحققت نبوءته ، قائلا « إن الله قد قام بدوره ، وعلينا نحن الآن أن نقوم بدورنا » . وقد كان .

فقد تشبث سياسة إسرائيل بالأرض أكثر من عشر سنوات قبل أن يردوا سيناء لأصحابها ، ولا يزالون بعد ثلاثين عاما على تشبثهم بالأرض ، سواء تحقق السلام مع العرب أو لم يتحقق .

وبالرغم من أن ليفى اشكول وجه إلى القادة العرب نداءه لعقد صلح مشرف مع إسرائيل ، فقد صاحبت هذا النداء الدعوة إلى الاتفاق على حدود جديدة ، والكلام عن أن خطوط الهدنة التى كانت قائمة منذ عام ١٩٤٩ لم تحل دون وقوع الحرب ، ومن ثم فلا عودة إلى حدود ما قبل الخامس من يونيو ١٩٦٧ .

وكانت الهزيمة قاسية على نفوس العرب . وأيقن قادتهم أن الصلح المشرف الذى تعرضه إسرائيل لا يعنى - فى ظروف الهزيمة - سوى الاستسلام وقبول شروط المنتصر .

والواقع أن قادة إسرائيل لم يكفوا عن الإعلان عن رغبتهم فى السلام ، وعن استعدادهم للقاء القادة العرب فى أى مكان وزمان .

وقد عرف تاريخ النزاع العربى الإسرائيلى الكثير من المساعى والوساطات . (*) حاولت الأمم المتحدة تنفيذ قرار التقسيم فرفضت إسرائيل ، وحاولت تنفيذ قرار عودة اللاجئين الفلسطينيين أو تعويضهم فرفضت إسرائيل ، ولم تقبل التفاوض على أساس القرارين - فى إطار لجنة التوفيق عام ١٩٤٩ (طبقا لبروتوكول لوزان فى ١٢ مايو ١٩٤٩) - إلا كوسيلة للتمهيد لانضمامها إلى الأمم المتحدة ، ثم مالبتت أن عدلت عن موقفها . ورفضت إسرائيل مقترحات وسيط الأمم المتحدة فولك برنادوت وقتلته عصابة ليحى الإرهابية .

وتوسطت الولايات المتحدة وبريطانيا وتوصلتا إلى ما يعرف بخطة ألفا (التى تقوم

(*) انظر بشأن مساعى السلام بين العرب وإسرائيل كتاب المؤلف « المواجهة والسلام فى الشرق الأوسط » .

على أساس إجراء تعديلات طفيفة فى الحدود بما يتيح الاتصال البرى بين الدول العربية وعودة عدد محدود من اللاجئين) ، وحاول المبعوث الأمريكى روبرت أندرسون السعى بين عبد الناصر وبين جوريون عامى ١٩٥٥ و ١٩٥٦ على أساس تلك الخطة ، ولكن فشلت مهمته .

وقضت حرب السويس عام ١٩٥٦ على احتمالات السلام فى تلك المرحلة ، وإن كانت مرابطة القوات الدولية بين مصر وإسرائيل قد حققت فترة من الهدوء إلى أن نشبت حرب ١٩٦٧ .

كان العرب يرفضون قرار التقسيم ، ولكنهم ما لبثوا أن قبلوا التفاوض على أساسه . هو والقرار ١٩٤ الخاص باللاجئين - فى إطار لجنة التوفيق ، ولكن إسرائيل ظلت على موقفها من رفض القرارين ، ولم يكن الزعماء العرب الذين اجتمعوا فى الخرطوم فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ يتوقعون من إسرائيل سوى تشدد أكبر يتناسب مع ما حققته من نصر فى ساحة القتال ، ومن ثم كانت لاءاتهم الشهيرة للاعتراف والتفاوض والصلح مع إسرائيل .

وخاب ظن موسى ديان الذى كان ينتظر رنين التليفون الذى ينهى إليه رغبة الزعماء العرب فى عقد الصلح مع إسرائيل .

وأصدر مجلس الأمن فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ قراره الشهير رقم ٢٤٢ الذى يضع أسس إقامة سلام دائم وشامل فى الشرق الأوسط ، ويطالب إسرائيل بالانسحاب من الأراضي التى احتلها فى حرب ١٩٦٧ . ولكن إسرائيل لم تقرأ من القرار سوى فقرة تشير إلى حق كل الدول فى العيش داخل حدود آمنة معترف بها . ووجدت الحكومات الإسرائيلية ضالتها فى هذه الفقرة لتفرض شرطا مسبقا لأية مفاوضات أو مساع للسلام هو الاتفاق معها على حدود آمنة . فلم تعد ترضيها حدود عام ١٩٤٩ التى توسعت إليها زيادة عما تضمنه قرار إنشائها .

وتعددت الحجج والأسانيد القانونية والسياسية لخدمة أهداف التوسع . فالفقرة التى تشير إلى انسحاب إسرائيل فى القرار ٢٤٢ تغفل - فى رأيها - عن عمد مطالبتها بالانسحاب من جميع الأراضي المحتلة ، فهى لا تضع أداه التعريف - فى النص الانجليزى - للأراضي المحتلة (فى حين ينص القرار على مبدأ عدم جواز اكتساب الأراضي بالحرب) . وحدود عام ١٩٤٩ ما هى إلا خطوط هدنة ويجب أن تتحول إلى حدود (وكانت إسرائيل تركز دائما على أنها هدنة دائمة بمثابة السلام الدائم الذى

ينهى حالة الحرب) ، وتدعى إن حرب ١٩٦٧ كانت حربا عدوانية عربية ، وأن غزو إسرائيل لتلك الأراضي واحتلالها كان دفاعا عن النفس ، ولها بالتالي أن تحتفظ بما تريده منها (فى حين أن إسرائيل هى التى بدأت الحرب) . . إلخ .

وعندما وجه جونار يارنج - ممثل الأمم المتحدة - رسائله إلى مصر وإسرائيل مستفسرا عن مدى استعدادهما لإبرام معاهدة سلام مقابل الانسحاب إلى الحدود الدولية ، ردت مصر بالإيجاب ، ورفضت إسرائيل .

ولما عرض وليام روجرز وزير الخارجية الأمريكية مشروعاً يتضمن الخطوط العامة للسلام على أساس القرار ٢٤٢ ، رفضته جولداماير ووجهت إليه اللوم الشديد .

أما عن الحدود الآمنة التى ترتضيها إسرائيل ، فقد أشار إليها آباييان فى خطابه أمام الكنيست فى ١٣ مايو ١٩٦٩ بأنها « الوجود الإسرائيلى الدائم فى شرم الشيخ وتوحيد القدس وإبعاد أيدي سوريا عن الجولان » . وقال ديان « إن شرم الشيخ بدون سلام أفضل من السلام بدونها » .

وكانت جولداماير أكثر وضوحاً عندما طالبت بضم الجولان وشم الشيخ ، واقتطاع أجزاء من سيناء تصل إسرائيل إلى خليج العقبة فضلاً عن ضم أجزاء من الضفة الغربية . أما القدس ، فقد ضمتها إسرائيل فعلاً بقرار من الكنيست ، وكتبت جولداماير فى مذكراتها إن خطأ إسرائيل هو أنها طالبت العرب بالتفاوض ، ولم تضع أمامهم خريطة جديدة وتطلب منهم توقيعها ، فقد كان هذا - فى رأيها - من حقها .

ووضع إيجال آلون مشروعاً لحدود إسرائيل الجديدة - والذى ظلت حكومات حزب العمل تستهدى به وخاصة فيما يتعلق بالاستيطان - ويتضمن ضم ثلث الضفة الغربية ومرتفعات الجولان وقطاع غزة ، فنهر الأردن يجب - فى رأيه - أن يكون الحد الأمنى الشرقى لإسرائيل وعليها أن تضم الأراضي الفلسطينية متفادية بقدر الإمكان - الكثافة السكانية (١٠ إلى ١٥ كم على طول النهر والمنطقة الصحراوية من جبل الخليل إلى البحر الميت ، وقطاعاً من شمال القدس إلى طريق الخليل) ، أما قطاع غزة الذى على إسرائيل ضم معظمه فإن اللاجئين فيه إما ينقلون إلى الضفة الغربية أو إلى العريش .

والواقع أن الحكومات العمالية انحرفت - تحت تأثير موسى ديان واليمين السياسى

والدينى - نحو اليمين ، وكان هذا واضحا فى سياستها تجاه الأراضى الفلسطينية بصفة خاصة .

فلسطين بأكملها تحت الاحتلال :

أصبحت كل الأراضى التى كانت تشكّل « فلسطين تحت الانتداب البريطانى » فى قبضة إسرائيل . وانطلقت صيحات اليمين الإسرائيلى مطالبة بعدم التفريط فى أى شبر من « أرض إسرائيل » . واعتبر المتطرفون من رجال الدين أى تفريط فيها - بعد معجزة النصر الإلهية - معصية كبرى سوف يدفع الشعب ثمنها الباهظ ، وسرعان ما شكلت جماعات الضغط اليمينية التى تعارض أى تنازل .

أما موسى ديان ، بطل النصر ، فقد أصبحت كلمته مسموعة فى مجلس الوزراء الإسرائيلى (الذى كان من أعضائه ميناخيم بيجين زعيم حزب حירות اليمينى المتطرف) . وتبنى المجلس اقتراح ديان بتطبيق ما تعرف بسياسة الجسور المفتوحة بين الأراضى الفلسطينية المحتلة ، وبين كل من الأردن وإسرائيل . وأصبحت الضفة الغربية وقطاع غزة - عملا - جزءاً من إسرائيل ، وصار اقتصادهما مندمجا تماما فى الاقتصاد الإسرائيلى وتابعا له . واتجه ديان إلى تنفيذ نوع من التقاسم الوظيفى فى شئون الضفة بين إسرائيل والأردن ، بحيث يظل الموظفون يتقاضون رواتبهم من الحكومة الأردنية ويبقى الإشراف على الأماكن المقدسة الإسلامية فى يد الأردن . وظل ما يعرف بالخيار الأردنى هو الحل المفضل لمستقبل الأراضى الفلسطينية ، بحيث تتم التسوية الإقليمية بشأنها مع المملكة الأردنية الهاشمية .

ورفضت إسرائيل الاعتراف بالقانون الدولى الذى ينظم علاقة سلطة الاحتلال بالإقليم الخاضع للاحتلال . فهى لاتعتبر اتفاقية جنيف الرابعة التى تنظم معاملة المدنيين تحت الاحتلال الحربى منطبقة على الأراضى الفلسطينية ، وتجاهل قرارات الأمم المتحدة المتعددة التى تلزمها بمراعاتها ، والتى تؤكد أن جميع التغييرات الإقليمية والسكانية التى تجريها فيها باطلة وغير مشروعة .

وكانت هذه التغييرات شاملة وخطيرة . فقد رفضت عودة ١٥٠ ألف فلسطينى فروا بسبب الحرب ، لكى تتفاقم مشكلة اللاجئين القائمة بدون حل منذ عام ١٩٤٨ . وضمت القدس العربية ، وأعلنت القدس الموحدة عاصمة أبدية لإسرائيل ، وأزالت قرى وأحياء عربية ، وصادرت الأراضى ، وأقامت المستوطنات ، وأخضعت

الفلسطينيين لقيود أمنية شديدة ، وانتهجت سياسة الردع والبطش مستخدمة كل الوسائل بما فى ذلك العقوبات الجماعية ، وهدم المنازل والنفى والإبعاد والاعتقال الفردى والجماعى .

وقد بدأت سياسة الاستيطان محكومة بالاعتبارات الأمنية ، ومستهدية إلى حد كبير بمشروع إيجال آلون . فأقيمت المستوطنات العسكرية (ناحال) على طول نهر الأردن كما أقيمت المستوطنات فى القدس ، ولكنها - تحت إلحاح موسى ديان وتهديده بالاستقالة - وافقت على خطة جاليلى للاستيطان فى وادى الأردن ، وشمال البحر الميت وقطاع غزة وكريات عربية ومرتفعات الجولان ومنطقة شرم الشيخ وخليج العقبة ، وخصصت ٣/٤ بليون دولار لتنفيذها ، ويبلغ عدد المستوطنات قبيل حرب ١٩٧٣ - ٤٤ مستوطنة . وفى حملته الانتخابية فى ذلك العام ، ركز ديان على التوسع فى الاستيطان ، وتوطين مائة ألف إسرائيلى فى القدس ، وبناء مستوطنة ياميت بالقرب من العريش ، والاستيلاء على قطاع من سيناء من إيلات حتى شرم الشيخ .

كانت مطامع الحكومات العمالية تتعدى مفهوم « أرض إسرائيل التاريخية » ، إلى مفهوم « الحدود الآمنة لإسرائيل » ، وتبنت جولدا ماير عددًا من اللاءات : لا عودة إلى حدود ما قبل ١٩٦٧ - ولا للدولة الفلسطينية - ولا اعتراف أو تفاوض مع منظمة التحرير - ولا تراجع عن ضم القدس .

حرب الاستنزاف والاستقطاب الدولى :

كان واضحا منذ وقف القتال فى يونيو ١٩٦٧ أن إسرائيل عازمة على فرض السلام على العرب بالقوة ، فقد أعلنت أنها لن تتزحزح من مواقعها فى الأراضى التى احتلتها قبل أن تحدد المفاوضات المباشرة معهم الحدود التى تنسحب إليها قواتها .

وقد لقيت من الولايات المتحدة المساندة الكاملة لموقفها ، وصدر قرار مجلس الأمن - بوقف إطلاق النار على غير العادة - خاليا من أية إشارة إلى انسحاب القوات إلى مواقعها السابقة . ووقف آرثر جولديرج المندوب الأمريكى فى المجلس واضعا كل ثقل بلاده السياسى فى خدمة الموقف الإسرائيلى .

كانت علاقات الرئيس الأمريكى ليندون جونسون بالرئيس عبد الناصر يشوبها الجفاء ، ومالبث جونسون أن رجع عن المبادئ التى كان قد اقترحها لحل الأزمة ، ومنها السلامة الإقليمية لدول المنطقة . وعندما تولى ريتشارد نيكسون الرئاسة

الأمريكية كان الاستقطاب لإسرائيل والدول العربية بين الدولتين العظميين قد أصبح من حقائق الحرب الباردة .

أما الاتحاد السوفيتي ، فقد وجد في هزيمة العرب ضربة قوية تهدد المركز الذي اكتسبه في العالم العربي وخاصة منذ صفقة الأسلحة التشيكوسلوفاكية عام ١٩٥٥ ، وبدأ سباق التسلح بين مصر وسوريا من جهة وإسرائيل من جهة أخرى .

وما إن أعاد عبد الناصر تنظيم الجيش المصري وتسليحه حتى بدأ حرب الاستنزاف ، كمرحلة أولى على طريق تحرير الأراضي المحتلة .

وصعدت إسرائيل الحرب ، فلم تقتصر على الأهداف العسكرية بل تجاوزتها إلى الأهداف المدنية لتنسف المصانع ، وخزانات المياه والمدارس والمنازل .

وكادت الدولتان العظميان أن تتورطا في القتال ، بعد أن استدعى عبد الناصر الطيارين السوفيت للدفاع عن عمق مصر . ووقف حائط الصواريخ المصرية على الضفة الغربية للقناة سداً منيعاً في وجه الطائرات الإسرائيلية .

وأدى الاستقطاب بين الغرب والشرق إلى فشل كل الجهود المبذولة من أجل التوصل إلى تسوية للنزاع . فشلت مهمة يارنج ، كما فشلت المباحثات الثنائية الأمريكية السوفيتية ، والمباحثات الرباعية التي انضمت إليها بريطانيا وفرنسا . ثم فشلت المساعي الأمريكية ، فقد رفضت إسرائيل مشروع روجرز ، كما رفضت مبادرة الرئيس السادات في فبراير ١٩٧١ بشأن تسوية انتقالية على أساس انسحاب مرحلي لإسرائيل من سيناء ، وفتح قناة السويس للملاحة . وفشلت كذلك مباحثات حافظ إسماعيل مع هنري كيسنجر الذي انبرى خلالها للدفاع عن إسرائيل .

كانت حكومة جولدا ماير على قناعة بأنه إزاء تفوق إسرائيل الساحق في المجال العسكري ، ومساندة الولايات المتحدة التامة لها ، فسوف تضطر مصر والدول العربية إلى قبول شروطها . وسادت حالة اللاسلم واللاحرب إلى أن أنهتها حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

القضية الفلسطينية على المسرح الدولي :

حاولت إسرائيل طمس القضية الفلسطينية ، وتصورت أنها قد تمكنت من تحويلها

إلى قضية لاجئين تقبع ضمن كثير من القضايا الدولية المزمنة ، فقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ يقضى بإيجاد حل عادل لمشكلة اللاجئين ، وقد ظلت كلمة « فلسطين » مختفية لسنوات طويلة من القاموس السياسى الدولى ، وكامنة فى السجلات المغلقة للأمم المتحدة . وبلغ التطرف بجولدا ماير حداً إنكار وجود شعب اسمه الشعب الفلسطينى .

ومع هذا ، فقد أعادت حرب ١٩٦٧ القضية الفلسطينية إلى واجهة الساحة الدولية .

كانت منظمة التحرير الفلسطينية قد شكلت عام ١٩٦٤ ، وخاضت أولى معاركها ضد القوات الإسرائيلية - معركة الكرامة - فى مارس ١٩٦٨ ، وأصدرت فى نفس العام ميثاقها الوطنى الذى يعتبر الكفاح المسلح الطريق الوحيد لتحرير فلسطين . وواصلت عمليات المقاومة ضد إسرائيل ، وإحياء القضية الفلسطينية فى المجالات الدولية .

وبعد أن ظلت القضية مطروحة أمام الأمم المتحدة على أنها قضية لاجئين ، إذا بها تتحول إلى قضية شعب يطالب بحقوقه المشروعة فى العودة وتقرير المصير . وتوالت قرارات المنظمة الدولية تعترف بهذه الحقوق ، وتبنت المنظمات والمؤتمرات الدولية القضية ، واعترفت القمة العربية بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً للشعب الفلسطينى ، كما اعترف بها عدد كبير من الدول . ودعى ياسر عرفات لإلقاء خطاب أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٧٤ .

الزلازل :

كانت الانتخابات الإسرائيلية تقترب من موعدها المقرر فى نهاية شهر أكتوبر ١٩٧٣ ، وكانت لافئات حزب العمل تملأ الشوارع تطمئن الشعب على مستقبل إسرائيل فى ظل الحكومات العمالية ، مبرزة أن « السلام قائم على ضفتى قناة السويس وفى صحراء سيناء والضفة الغربية فى يهودا والسامرة وفى الجولان . والجسور مفتوحة والقدس موحدة . وقد بنيت مستوطنات جديدة وسياستنا ثابتة فكلها نتائج سياسة جريئة ومتوازنة وبعيدة النظر » .

والحق أن حكومة جولدا ماير كانت تشعر باطمئنان بالغ ، وكان ديان يؤكد أن أمام الدول العربية عشر سنوات على الأقل قبل أن تقف على أقدامها ثانية . فخط بارليف

الحصين كفيل بصد أى هجوم يتراءى لمصر القيام به ، وعبور قناة السويس فيه هلاك الجنود المصريين حرقاً بالنيران التى ستسلط عليهم من فوهات الأنابيب الممتدة فيها ، ثم إن هناك سداً ترابياً يستحيل عليهم تسلقه لو عبروا .

ومع ذلك ، فقد وقع الزلزال الذى هز المجتمع الإسرائيلى من جذوره ، وحطم أسطورة الجيش الذى لا يقهر . ولم تكن التحركات العسكرية يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ إحدى المناورات المظهرية التى دأبت مصر على أدائها ، بل كانت هجوماً شاملاً ومخططاً كأحسن ما يكون التخطيط العسكرى . وخلال ساعات وجيزة عبرت القوات المصرية القناة ، وهدمت السد الترابى ، ودكت حصن بارليف ، وقتلت وأسرت أعداداً كبيرة من جنود إسرائيل . كما اجتاحت القوات السورية مرتفعات الجولان .

واستغاثت جولدا مايير بالولايات المتحدة ، وتوقع موسى ديان النهاية مطالباً بسحب قواته من سيناء . وتقدمت أمريكا لإنقاذ حليفها فى ميدان المعركة ، ولعب هنرى كسينجر دوره المعروف لاحتواء النصر المصرى ، وإتاحة الوقت لإحداث الثغرة الإسرائيلية غرب القناة ، ووضع البلدين على بداية الطريق نحو مفاوضات السلام .

وتم عقد اتفاقيتى الفصل بين القوات المصرية والإسرائيلية ، الأولى فى يناير ١٩٧٤ والثانية فى سبتمبر ١٩٧٥ ، واتفاقية ثالثة بين سوريا وإسرائيل فى مايو ١٩٧٤ .

وكان على حزب العمل وحكومته أن يدفعاً ثمن الهزيمة . وقدمت جولدا مايير استقالتها ، وتولى اسحق رابين رئاسة الوزارة . وبدأ رأى العام الإسرائيلى يتحول إلى اليمين فقد فشلت الحكومات العمالية بالرغم من اتجاهاتها المتشددة وسادت الانقسامات صفوف حزب العمل ، وفاحت منه روائح الفضائح ، ولم يعد وصول اليمين إلى السلطة إلا مسألة وقت .

الدور الأمريكى فى عملية السلام :

منذ أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ استأثرت الولايات المتحدة بالدور الرئيسى فى مساعى السلام فى الشرق الأوسط ، وعملت على إبعاد أى تدخل من جانب الأمم المتحدة أو غيرها فيها ، وأصبحت المحصلة أنها - وهى الحليف الأكبر لإسرائيل - ظلت غير قادرة أو غير راغبة فى ممارسة الضغوط الضرورية عليها وإفساح المجال أمام الدولة العبرية لمفاوضة الأطراف العربية من موقع القوة .

الفصل السابع

اليمن الإسرائيلي في السلطة

التحول إلى اليمين :

كانت انتخابات الكنيست عام ١٩٧٧ ، نقطة تحول في الحياة السياسية الإسرائيلية . فقد ظلت الصهيونية العمالية مهيمنة على الحكم منذ إنشاء دولة إسرائيل . وكان التكتل العمالي قد شكل منذ عام ١٩٦٨ من أحزاب الماباي وأحدوت ها عفودا ورافى في ائتلاف مع حزب الماباي اليسارى ، فى حين كانت كتلة ليكود اليمينية تجمع أحزاب حيروت والليبراليين وقائمة الدولة ولا عام . أما الأحزاب الدينية ، فقد كان أهمها الحزب القومى الدينى الذى استمر يشارك فى حكومات الائتلاف العمالية ، وحزب أجودات إسرائيل الأصولى .

وقد تطور الموقف الداخلى فى إسرائيل منذ زلزال أكتوبر ١٩٧٣ ، فشككت حركة تمثل اتجاهها وسطا تحت اسم « الحركة الديمقراطية للتغيير » ، كان لها أثرها الكبير فى تغيير اتجاهات رأى العام حيث شنت حملتها على حكومة العمل محملة إياها مسئولية الأوضاع السيئة للبلاد ، ومطالبة بتغيير جذرى للنظام السياسى . وقد ضمت الحركة شخصيات معتدلة تحظى باحترام رأى العام ويرأسها إيجال يادين . ونجحت الحركة فى جذب عدد كبير من أصوات الذين كانوا يصوتون للتكتل العمالى .

وارتفعت أسهم تكتل الليكود بزعامة ميناحيم بيجين على حساب التكتل العمالى الذى حمله كثير من الناصحين مسئولية التقصير الخطير فى حرب أكتوبر ، كما أضعفت مركزه الانقسامات والفضائح . وقاد عيزر فايتسمان حملة انتخابية ناجحة لصالح الليكود ، مركزاً على فضائح حزب العمل « ونفاق العماليين والاشتراكيين من أمثال آبا

إيمان وديان اللذين يعيشان حياة المليونيرات » . ونجح في تقديم الليكود للناخبين من اليهود الشرقيين - وخاصة القادمين من الدول العربية - باعتباره الحزب الذي يرمى مصالحهم ، ويدافع عنها ضد تسلط الاشكنازيين الأوربيين .

وفي حين ظلت سياسة حزب العمل غير واضحة بالنسبة لمستقبل الأراضي العربية المحتلة ، كانت سياسة الليكود واضحة وقاطعة بعدم التنازل عن « أرض إسرائيل » والجولان وأجزاء من سيناء .

وجاءت نتائج الانتخابات قاطعة الدلالة على تحول الناخبين إلى أحزاب اليمين . ارتفع عدد مقاعد الليكود من ٣٩ إلى ٤٣ ، ومقاعد الحزب القومي الدينى من ١٠ إلى ١٢ ، واحتفظ أجودات إسرائيل بمقاعد الخمسة . أما التحالف العمالي ، فقد انخفض عدد مقاعده من ٥١ إلى ٣٢ ، وفقد بذلك ١٠ مقاعد في الكنيست السابق . وأما الحركة الديموقراطية للتغيير ، فقد حصلت على ١٥ مقعدا ، وخسر اليسار خمسة (٢ من حركة حقوق المواطنين بزعامة شلوموت آلونى و ٣ من حزب شيلى) .

وهكذا تحول نصف عدد الناخبين عن توجهاتهم الحزبية السابقة ، وفاز اليمين بأغلب مقاعد الكنيست . وشكل ميناخيم بيجين حكومته الائتلافية الأولى التى تضم وزراء من الليكود ، والحزب القومي الدينى وحزب أجودات إسرائيل ، وكذا موسى ديان (وزيرا للخارجية) بصفته مستقلا .

ميناخيم بيجين :

نشأ ميناخيم بيجين فى مدينة بريست ليتفوسك حيث كانت تعيش جالية يهودية كبيرة تتعرض للاضطهاد الحكومى ، والغارات العدائية للجماهير التى كانت تسودها مشاعر العداء للسامية ، واعتنق مع عائلته الأفكار الصهيونية منذ صباه .

ودرس القانون فى جامعة وارسو . وانضم إلى حركة بيطار لتأهيل الشباب اليهودى عسكريا وهو فى السادسة عشرة ، وأصبح عضوا فى لجنه التنفيذى فى بولندا عام ١٩٣٢ . وتجلت مواهبه الخطائية ، كما ظهر ميله إلى العنف والانتقام من المعادين لليهود .

ومنذ تعرفه بشلاديمير جابوتنسكى عام ١٩٣٥ ، أصبح من تلاميذه المتأثرين

بأفكاره القائلة بأن كل يهودى له حق الحياة فى فلسطين ، وأن ردع العرب عسكريا هو الوسيلة لإخضاعهم ، وأن القوة العسكرية اليهودية هى وحدها - وليس التعاون مع بريطانيا - الكفيلة بإقامة الدولة اليهودية ، كما كان مقتنعا مثل أستاذه بأن السياسة التى تتبعها الصهيونية العمالية لن تؤدى إلى تحقيق هذا الهدف ، وبأنه لا يجوز التنازل عن أى شبر من « أرض إسرائيل » ، ومن ثم فإنه يجب التمسك باسترداد شرق الأردن .

والواقع أن طبائع بيجين كانت تشبه طبائع أستاذه جابوتنسكى . ففضلا عن اتجاهاتهما اليمينية المتطرفة ، كان الاثنان يميلان إلى الاستبداد والنظام والتنشئة والتنظيم العسكريين للشباب . وكانت هذه الاتجاهات سائدة فى أوروبا فى ذلك الوقت ، وكما تأثر جابوتنسكى أثناء حياته فى إيطاليا بكفاءة موسوليني الخطابية فإن بيجين بدا متأثرا بنفس الاتجاهات .

ومع ذلك ، فقد كان بيجين أكثر ثورية وتطرفا من جابوتنسكى . ففى مؤتمر بيطار عام ١٩٣٨ خالف أستاذه ، وانبرى معارضا اقتراحه ألا يكون استخدام السلاح إلا للدفاع ، واقترح على المؤتمر الموافقة على عبارة « إننى لن أرفع سلاحى إلا للدفاع عن شعبى وغزو بلادى » . مطالبا بانتهاج سياسة متشددة وغزو فلسطين بالقوة . وقد سخر منه جابوتنسكى ، ولكن المؤتمر أيد بيجين .

كانت الصهيونية التصحيحية فى ذلك الوقت تدرس الخطط لغزو يهودى لفلسطين . واقترحت على بولندا مطالبة بريطانيا بالتخلى لها عن الانتداب على فلسطين ، وفى ربيع ١٩٣٩ أنشأ البولنديون مدرسة لتدريب اليهود على حرب العصابات حيث درب رجال إيتسل على أعمال التخريب ، وتم تدبير الأسلحة اللازمة لعشرة آلاف مقاتل من أجل غزو فلسطين ، ولكن استبعدت الخطة بسبب استحالة عبور هؤلاء المقاتلين بأسلحتهم للأراضى التركية والإيطالية . بل إن جابوتنسكى اقترح أن يقود قاربا إلى شاطئ تل أبيب فتقوم السلطات البريطانية بالقبض عليه فى الوقت الذى يقوم فيه رجال إيتسل بالاستيلاء على مقر السلطة البريطانية لمدة ٢٤ ساعة ويعلنون إقامة حكومة مؤقتة ، كما تعلن الحركة التصحيحية قيام حكومة فى المنفى . وكانت كلها خططا خيالية تعكس مدى التطرف الذى كان سائدا فى تلك الحركة ، وقد ظلت فكرة غزو فلسطين متسلطة على فكر ميناخيم بيجين إلى أن قضى غزو قوات هتلر لبولندا عليها ، ففر إلى فيلنا ، وقبضت عليه السلطات السوفيتية بتهمة التجسس ، وأفرج عنه عقب الغزو الألمانى لروسيا .

وفى عام ١٩٤٢ ، شكل جيش بولندى فى المنفى - طبقا لاتفاق تم بين الحكومة البولندية فى المنفى والحلفاء والسوفييت - وانضم بيجين إلى ذلك الجيش الذى أرسل وحدة إلى فلسطين كان بيجين من بين أفرادها .

وهكذا وصل ميناحيم بيجين إلى فلسطين . وفى فبراير ١٩٤٤ ، أعلن قيام حركة التمرد على السلطات البريطانية ، وقاد العمليات الإرهابية التى شنتها إيتسل ضد الجنود والضباط والمنشآت العسكرية . وينفى بيجين فى كتابه الثورة The Revolt صفة الإرهاب عن تلك العمليات فتعبير الإرهاب لا يمكن إطلاقه على الثورة أو الحرب الثورية التى تستهدف إسقاط النظام وإقامة نظام آخر محله . أما ثورة بيجين ، فإنه يرجعها - فى كتابه - إلى أنه كانت هناك حقيقتان تحكمان فى وضع الشعب اليهودى فى ذروة الحرب العالمية الثانية : كان هتلر يبىد اليهود فى أوربا ، وبريطانيا مستمرة فى إبقاء بوابات فلسطين محكمة الإغلاق فى وجوههم .

أما عن عرب فلسطين ، فإنه يذكر فى كتابه أن عصابته تمكنت من تحييدهم منذ بدء الثورة . ومع ذلك ، فإنه لا ينكر مسئوليته عن مذبحه دير ياسين فى ٩ أبريل ١٩٤٨ ، ولا يتورع عن القول بأنه لولا دير ياسين ما قامت دولة إسرائيل .

ففى ذلك اليوم ، قامت قوة من منظمتى إيتسل وليحى الإرهابيتين - وبموافقة القائد العام للهاجاناه - بشن هجوم على القرية ، وقتلت ٢٥٠ من رجالها ونسائها وأطفالها بالرغم من استسلامهم . فى الوقت الذى كانت مكبرات الصوت تروغ سكانها وتدعوهم إلى الهرب « فطريق أريحا مفتوح أمامهم » . وكان الهدف عندئذ هو تنفيذ الخطط المرسومة لإفراغ فلسطين من أصحابها العرب .

وقد صك بيجين شعاره الغريب « نحن نقاتل إذن فنحن موجودون ! » .

وقد قاتلت عصابته العرب والبريطانيين على السواء ، قامت بنسف فندق الملك داود - مقر سلطة الانتداب - مما أدى إلى مقتل ٩١ بين بريطانيين وعرب ويهود ، ونسفت الجسور وخطوط السكك الحديدية ، وشنقت وجلدت جنودا بريطانيين ، كما فجرت القنابل فى الأسواق والتجمعات العربية ، وقامت باحتلال يافا . وبالرغم من معارضة بيجين لسياسة الوكالة اليهودية بقيادة بن جوريون ، واحتفاظه بالاستقلال عن الهاجاناه ، فقد كان التنسيق بين الجانبين قائما فى كثير من الأحيان .

بن جوريون وميناحيم بيجين :

ظل ميناحيم بيجين حريصا على استقلال تنظيمه الإرهابي وحرية في العمل إلى ما بعد إعلان قيام دولة إسرائيل عندما وقع الصدام بينه وبين دافيد بن جوريون في حادث السفينة التالينا (*) والذي عمق العداء بينهما .

وقد أسس بيجين حزبه « حيروت » بعد إنشاء إسرائيل ، واجتذب إليه بصفة خاصة الفئات الفقيرة من المهاجرين الشرقيين ، الذين كانوا يشعرون بتمييز المؤسسة الحاكمة لليهود الاشكينا (الأوربيين) عليهم ، كما كانت مشاعرهم عدائية للعرب . وفي انتخابات الكنيست عام ١٩٤٩ ، شغل الحزب المركز الثالث .

واتخذ بيجين موقفا ديماجوجيا في الكنيست ، عندما بدأت المباحثات التمهيدية التي أجرتها الحركة الصهيونية مع ألمانيا الغربية عام ١٩٥٢ ، للحصول منها على تعويضات عن مذابح النازية . فقد شن حملة شعواء على بن جوريون وحكومته محاولا إثارة انجماهير ومهددا «عندما أطلقوا مدفعهم علينا (في حادث التالينا) أعطيت أوامري بلا ، وأما اليوم فأوامري هي نعم وسوف تكون حرب حياة أو موت» . وقد تحركت الجماهير الغاضبة إلى الكنيست تقذف نوافذه بالحجارة وتحرق السيارات في طريقها . وعوقب بيجين على ذلك بحرمانه من عضوية الكنيست لمدة ١٥ شهرا .

وكان بن جوريون يعتبر بيجين مهرجا فاشيا ، ويرفض إشراك حزبه في الحكم رافعا شعار لا حيروت ولا ماكي (الحزب الشيوعي) . أما بيجين فقد ظل يقود المعارضة لحكومات العمل بكل شدة ، ويحاول إخراجها في كل مناسبة . (من ذلك اتهامها بالتستر على شخص يدعى كاسترنر في قضية شهيرة عام ١٩٥٤ كان متهما فيها بعقد صفقة مع النازيين مضحيا بالآلاف اليهود المجريين لإنقاذ حياتهم هو وعائلته) .

وشارك بيجين في الحكم لأول مرة وزيرا بلا وزارة في حكومة الوحدة الوطنية التي شكلت برئاسة ليفي اشكول قبيل حرب ١٩٦٧ ، ثم استقال منها عند قبول جولدا ماير

(*) يتلخص حادث السفينة التالينا في أنه خلال حرب ١٩٤٨ ، قام بيجين بتهريب أسلحة على السفينة دون إبلاغ الحكومة ورفض تسليمها إليها ، فأمر بن جوريون بإطلاق النار على السفينة

مبادرة روجرز في أغسطس ١٩٧٠ (التي تتضمن وقف إطلاق النار واستئناف المفاوضات من خلال جونار يارنج ، ممثل الأمم المتحدة ، لتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢) ، وذلك احتجاجاً على قبول قرار يقضى بالانسحاب الإسرائيلي من الأراضي المحتلة .

الأراضي المحررة :

تضمن برنامج ائتلاف الليكود في مارس ١٩٧٧ :

« إن حق الشعب اليهودي في أرض إسرائيل أبدى وغير منازع ، وهو مرتبط بحقه في الأمن والسلام ، ولذا فإن يهودا والسامرة لن تسلمتا إلى أية إدارة أجنبية ، وسوف لا تكون بين البحر (الأبيض) و (نهر) الأردن سوى السيادة الإسرائيلية .

وإن (أية) خطة للتخلي عن أجزاء من أرض إسرائيل الغربية تقوّض حقنا في الدولة ، وتقود حتماً إلى إنشاء دولة فلسطينية ، وتعرض للخطر أمن الشعب اليهودي ووجود دولة إسرائيل وتحبط أي احتمال للسلام .

كما تضمن البرنامج إعطاء حكومة الليكود الأولوية للسعي إلى السلام مع جارات إسرائيل ، والتفاوض المباشر لعقد معاهدات سلام معها دون شروط مسبقة أو تدخل خارجي . واعتبر منظمة التحرير الفلسطينية جماعة من القتل يجب القضاء عليها .

وأكد البرنامج العزم على الاستيطان في كل أجزاء أرض إسرائيل - في الريف والحضر - باعتبار الاستيطان هو محور الجهود الصهيونية لخلاص البلاد ، وإقامة المناطق الأمنية الحيوية وحفز الروح الريادية .

وقد رفض ميناخيم بيجين اعتبار الأراضي العربية أراضٍ محتلة ، كما رفض استخدام تعبیر المناطق المدارة ، بل أطلق عليها اسم الأراضي المحررة . أما الضفة الغربية ، فقد تمسك - حتى في النص العبري لاتفاق كامب ديفيد - بإطلاق التسمية العبرية « يهودا والسامرة » عليها .

وعند تولي بيجين الحكم ، كان يرى ضم الجزء الشرقي من سيناء ، ويعتزم الحياة بعد تقاعده في مستوطنة ياميت . كما ضم القدس واستصدر في ١٤ ديسمبر ١٩٨٠ قراراً من الكنيسة بإخضاع هضبة الجولان السورية للقانون الإسرائيلي ، بما يعني ضمها في انتهاك صارخ للقانون الدولي وقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ .

وأما الضفة الغربية وقطاع غزة ، فقد كانتا موضوعا لا يقبل بيجين النقاش فيه ، فأراضى « يهودا والسامرة » وغزة تشكل أجزاء من أرض إسرائيل ، ولا يقبل أية سيادة أجنبية عليها . وأقصى ما قدمه من تنازل بشأنها هو أن يتمتع سكانها بقسط محدود من الإدارة الذاتية يمارسونه تحت سيادة إسرائيل ورقابتها .

والواقع أنه لم يمض سوى شهرين على حرب أكتوبر حتى أسست حركة « أرض إسرائيل الكاملة » . وأصدرت بيانا يتضمن « إن النصر الذي حققه جيش إسرائيل في حرب الأيام الستة قد وضع الشعب والدولة في حقبة جديدة ومصيرية .

إن أرض إسرائيل كلها الآن في أيدي الشعب اليهودي . وكما أنه لا يجوز لنا أن نتنازل عن دولة إسرائيل ، فإننا ملزمون كذلك بصيانة ما حصلنا عليه من هذه الأرض . ولا يحق لأية حكومة إسرائيلية أن تتنازل عن أى جزء منها ، فهذا هو الحق الأساسى الثابت لشعبنا منذ بداية تاريخه » .

أما اليهود المتدينون ، فقد رأوا فى نصر ١٩٦٧ معجزة كبرى على نحو ما تقدم ، وفى اليوم السادس من الحرب عندما وصل جنود إسرائيل إلى حائط المبكى فى القدس ، وقف الحاخام كوك ليقول « إننا نعلن لإسرائيل كلها وللعالم بأسره أننا قد عدنا إلى بيتنا ومدينتنا المقدسة بأمر من الله » .

وأضاف الحاخام ليفنجر « إن حرب الأيام الستة من صنع العرب ، ولكنها - بالنسبة لى - أمانة من الله . إن السامرة ويهودا ملك للشعب الإسرائيلى حتى من قبل ١٩٦٧ . وقد كنا نعرف ذلك طوال التاريخ ، ونعرف أننا سوف نتسلم الضفة الشرقية للأردن يوما ما . . إنها إرادة الله » .

واليهود - فى رأى ليفنجر - لا يمكنهم تحقيق رسالتهم الروحية فى إطار حدود ما قبل ١٩٦٧ . « فهم لم يكونوا يؤدون الصلاة ثلاث مرات يوميا من أجل العودة إلى تل أبيب وحيفا ، بل إن اليهود صلوا طوال القرون الماضية للعودة إلى القدس والخليل ونابلس ، فمقبرة إبراهيم واسحق ويعقوب موجودة فى الخليل التى كانت عاصمة داود ، ويجب أن تشمل دولة إسرائيل كل أرضها انتظارا لمجىء المسيح » .

كما وجدت الأصولية الدينية نصوصا فى التوراة تحكى قصة غزو بنى إسرائيل لأرض كنعان ، وتقول : « حين تقترب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح ،

فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وإن لم تسلم لك بل عملت معك حربا فحاصرها . وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف . وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة ، كل غنيمتها ، فتغنمها لنفسك . . وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما بل تحرمها تحريما الحيثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين كما أمرك الرب إلهك (تثنية - الإصحاح ٢٠) .

وقد أفتى الأصوليون اليهود بتطبيق هذه النصوص على العرب . فالحاخام تسفى يهودا يستشهد بموسى بن ميمون على أن الكنعانيين خيروا بين أمور ثلاثة : الفرار أو القبول بالحكم اليهودي أو القتال ، ويقترح أن يكون موقف إسرائيل من العرب الفلسطينيين قائما على هذا الأساس . وحانات بورات يرى شن حرب لاهوادة فيها على العرب في أرض إسرائيل إذا هم رفضوا السيادة الإسرائيلية .

ويشبه بعض الحاخامات عرب فلسطين بالعمالقة ، ويسوون بينهم وبين هؤلاء في المعاملة الواردة في التوراة . وكان العمالقة - بحسب الرواية التوراتية - يغيرون على اليهود خلال وجودهم في التيه ، ولذا أمرت التوراة بقتلهم رجالا ونساء وأطفالا ومحوهم من وجه الأرض . ففى رأى حايم تسوريا « إن هناك في كل جيل عمالقة ، وأما عمالقتنا فهم العرب الذين يعارضون بعث وجودنا القومى في أرض أسلافنا » .

أما الحاخام تسفى يهودا كوك فإنه يعلن فتواه الدينية للإسرائيليين : « أقول لكم بشكل واضح وجلى بأن التوراة تحرم علينا أن نسلّم ولو بوصة واحدة من أرضنا المحررة (يقصد الأراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧) ، ليس هناك احتلال ، فنحن لم نحتل أراض أجنبية . نحن نعود إلى وطننا ، إلى ميراث أسلافنا » . كما أنه لا يرى في الفلسطينيين سوى أناس كانوا قد سلبوا أرض اليهود ، « لقد وجدنا أنفسنا هنا بموجب إرث أسلافنا وبناء على ركائز توراتية وتاريخية ولا يستطيع أحد أن يغير هذه الحقيقة . إن هذا الوضع يشبه إنسانا ترك بيته وجاء الآخرون ليسلبوه وهذا هو بالضبط ما حدث لنا والبعض يجادل بأن هناك أراض عربية هنا ولكن ذلك كله كذب وخداع فليست هناك أراض عربية على الإطلاق » .

ويفسّر الحاخام كاهانا بدوره التعاليم التوراتية قائلا « إن عرب إسرائيل ينتهكون قدسية اسم الرب . إن عدم قبولهم بالسيادة اليهودية على أرض إسرائيل هو رفض

لسيادة رب إسرائيل ومملكته ، لذلك فإن طردهم من الأرض هو أكثر من مسألة سياسية ، إنه مسألة دينية . إنه التزام ديني بحق منتهكى قداسة اسم الرب ، وبدلاً من أن نقلق من ردود فعل غير اليهود في حالة القيام بهذا الأمر فإن علينا أن نرتجف حين نفكر بسخط الرب إذا لم نقم به « (*) » .

والخلاصة هي أن رجال الدين المتطرفين ، قد عملوا على إيجاد التفسيرات والتأويلات من التوراة وغيرها من الكتب اليهودية الدينية لتحريم النزاع عن أى جزء مما يعتبرونه أرض إسرائيل (وبحسب تفسيراتهم الواسعة لحدود هذه الأرض) ، وإنكار أى حق للفلسطينيين فيها ، واعتبار هؤلاء من العمالقة الذين أمرت التوراة بمحوهم من وجه الأرض ، والدعوة إلى طردهم خارج فلسطين حيث إن بقاءهم يعد معصية كبرى ورفضاً لسيادة الرب على أرض إسرائيل .

وقد وجد الحاخامات في التراث الديني اليهودي ما يستندون إليه في فتاويهم ، فاليهودية دين وقومية وسياسة في آن واحد ، والتوراة هي المرجع الأساسي لما يسمى « بالتاريخ المقدس » لإسرائيل .

وقد تلاقت دعوة الأصولية الدينية الصاعدة منذ حرب ١٩٦٧ ، مع عقيدة بيجين التي نشأ عليها منذ صباه ، والتي نمت مع تعاليم أستاذه جابوتنسكى بعدم النزاع عن أى شبر من أرض إسرائيل - غرب الأردن وشرقه - واستيطانها بالكامل وإخضاع عرب فلسطين بالجدار الحديدي ، مع إمكان منحهم نوعاً من الحكم الذاتي .

وكان بيجين أميناً في سياساته لتعاليم أستاذه والتمسك بأرض إسرائيل كاملة ، فقد ظل رافضاً لأية سيادة أجنبية على « يهودا والسامرة » وغزة ، وظل شعار حيروت يحمل خريطة تمتد إلى شرق الأردن . كما اعتبر مرتفعات الجولان جزءاً من أرض إسرائيل . وحاول طوال حكمه - هو وخليفته من بعده - إخضاع عرب فلسطين بالقوة ، ومع ذلك ، فإن إخضاع الفلسطينيين ، سواء في الأراضي المحتلة أو في إسرائيل ذاتها ، لم يكن أمراً سهلاً . ففي عام ١٩٧٦ ، عندما حاولت حكومة رابين الاستيلاء على ٥٠ هكتاراً شمالي شرق كفر قاسم ، أعلن الفلاحون أنهم سوف يقاتلون من أجل

(*) إيان لوستيك : الأصولية اليهودية في إسرائيل .

الأرض حتى الموت واضطرت الحكومة العمالية إلى وقف إجراءاتها ، وأصبح يوم ٣٠ مارس يحتفل به تحت اسم « يوم الأرض » . وتمرد طلاب الجامعات على المعاملة التي يلقونها . وازداد تأييد الفلسطينيين لمنظمة التحرير الفلسطينية ، واشتدت المواجهات بين الجنود والمستوطنين اليهود من جهة ، وبين الفلسطينيين من جهة أخرى .

وقد وضع أمنون لين مستشار بيجين للشئون العربية أسس الاستراتيجية التي تتبع تجاه العرب ، والتي تقوم على أساس إخضاعهم لليد القوية ، واتباع إجراءات شديدة ضد من لا يثبت ولاؤه لإسرائيل . ومن هذه الإجراءات الضغوط الاقتصادية ، وحرمان الطلبة من الالتحاق بالجامعات الإسرائيلية ، وإبعاد من يثبت اتصاله بمنظمة التحرير الفلسطينية ، فضلا عن الاعتقال الإداري وقمع المظاهرات بالقوة (*) .

أما أرييل شارون ، الذي تول منصب وزير الزراعة ورئيس اللجنة الوزارية للإسكان في حكومة بيجين الأولى ، فقد تولى تنفيذ تلك الاستراتيجية بكل التطرف الذي يعكس مشاعره العدائية للفلسطينيين ، سواء في مواجهة سكان الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ ، أو عرب إسرائيل ذاتها ، فقد كان جميع الفلسطينيين - في رأيه - أجنب في أرض إسرائيل ، ومن ثم فقد أعلن بدء الهجوم القوى من أجل رفع قبضة الأجنب عن أراضي الدولة .

الاستيطان بين الدين والسياسة :

بدأ شارون باستيطان منطقة الجليل - التي كانت شبه خالية من الوجود اليهودي - ببناء ثلاثين مستوطنة فوق الجبال التي تطل على القرى العربية ، وقام بهدم المنازل العربية بحجة عدم الحصول على تراخيص بنائها ، وتصدى لمقاومة السكان العرب بنيران قواته ، وأوقع عددا من القتلى والجرحى .

وقد أدت سياسات حكومة بيجين إلى تصاعد المقاومة الفلسطينية ، وازدياد التأييد لمنظمة التحرير الفلسطينية . وفي يناير ١٩٧٩ ، عقد ٢٨ من رؤساء المجالس البلدية

(*) Howard Sachar . A History Of Israel.

وحوالى مائة من زعماء حزب ركاح اليسارى اجتماعا أعلنوا فيه مواصلة الشعب الفلسطينى للنضال بقيادة المنظمة من أجل إقامة دولة فلسطينية مستقلة . كما ساد التذمر والاحتجاج أوساط الطلبة فى الجامعات .

ولكن شارون كان مصمما على تنفيذ خطته الاستيطانية مستخدما القبضة الفولاذية لإخضاع أية مقاومة فلسطينية .

وكان الرئيس أنور السادات وجيمى كارتر يتوقعان أن يجمّد بيجين الأنشطة الاستيطانية بعد عقد اتفاق كامب ديفيد ، فقد وعد رئيس الوزراء الإسرائيلى بذلك خلال المفاوضات ، ولكن نشب الخلاف بينه وبين الرئيس الأمريكى بشأن حقيقة هذا الوعد ومداه ، ففى حين أكد كارتر أن بيجين التزم بوقف الاستيطان خمس سنوات فإن بيجين أكد من جانبه أنه لم يعد بإيقافه لأكثر من ثلاثة أشهر يجرى خلالها التفاوض بين مصر وإسرائيل لعقد معاهدة السلام بينهما . وسلم كارتر فى نهاية الأمر .

وبدأ الاستيطان المكثف فى كافة الأراضى الفلسطينية فور توقيع معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية . وتحالفت حكومة بيجين مع الأصولية الدينية لتنفيذ أهدافهما المشتركة فى استيطان « أرض إسرائيل » بجميع أجزائها .

كانت « جوش إيمونيم » (أى كتلة المؤمنين) قد أسست منذ عام ١٩٧٤ ، بعد شهور من حرب أكتوبر ١٩٧٣ . ففى خضم المناقشات التى فجرها الزلزال الذى هز المجتمع الإسرائيلى من جراء تلك الحرب ، والتى كانت تدور حول مستقبل الأراضى العربية المحتلة ، قام الحاخامان كوك وليفنجر بتأسيس تلك الحركة .

أما الحاخام تسفى يهودا كوك ، فقد سبق أن أشرنا إلى أنه ابن الحاخام إبراهيم اسحق كوك زعيم الأرثوذكسية اليهودية الذى وضع أسس الصهيونية الدينية الحديثة وأصدر الفتاوى المؤيدة للحركة الصهيونية وإقامة دولة إسرائيل . وقد سار ابنه على خطاه .

وأما الحاخام موسى ليفنجر ، فيعد رائد عمليات الاستيطان منذ حرب ١٩٦٧ . وقد ولد فى رحافيا قرب القدس عام ١٩٣٥ . وكان والده قد هاجر من ألمانيا إلى فلسطين عند تولى هتلر السلطة ، وكان من المتدينين الحديسين وعرف عنه اعتلال صحته منذ صباه ، وإصابته بنوبات من الاكتئاب . وتطوع فى الجيش الإسرائيلى (رغم إمكان إعفائه باعتباره من دارسى التوراة) . وتتلذذ على يد تسفى يهودا كوك وأصبح

يؤمن مثله بأن الصهيونية تدخل ضمن الخطة الإلهية لإعادة اليهود إلى إسرائيل وبدء الحقبة المسيحانية . وتتسم شخصيته بالتطرف والميل إلى العنف ، وقد تعددت اعتداءاته على الفلسطينيين وقبض عليه أكثر من مرة ، وسجن بسبب هذه الاعتداءات .

وفي أبريل ١٩٦٨ ، كلفه الحاخام كوك بالاستيطان في مدينة الخليل ، فقاد ٣٢ عائلة يهودية ، واستأجر أحد الفنادق في المدينة وأقامهم فيها ، وانتهى الأمر بموافقة الحكومة العمالية ، رغم أن استيطان الأماكن ذات الكثافة السكانية العربية كان يخالف سياستها .

وفي مارس ١٩٧٩ ، قادت ميريام زوجة ليفنجر ٤٠ من النساء والأطفال وهبطت بهم من مستوطنة كريات عربية إلى حي القصبة في المدينة واحتل المستوطنون بيت حداسا . ورضخت حكومة بيجين وأقيمت المستوطنة اليهودية في وسط المدينة .

ومنذ ذلك الوقت ، أصبح الوضع في مدينة الخليل غاية في الخطورة بسبب الاحتكاكات والمصادمات المستمرة بين اليهود الذين لايزيد عددهم على ٤٠٠ مستوطن والسكان الفلسطينيين البالغ عددهم ١٢٠ ألف فلسطيني .

وقد تضمن برنامج « جوش إيمويم » « أن أرض إسرائيل ملك خالص للشعب اليهودي ، ويجب أن تبسط السيادة اليهودية الكاملة فوراً على كل أرض إسرائيل الموجودة حالياً في أيدينا » .

وهي منظمة يهودية أصولية ، تؤمن بأن عهد الخلاص قد بدأ ، وسوف يعود اليهود من منفاهم إلى أرض إسرائيل حيث يسيطرون عليها سيادتهم ويقيمون من جديد الهيكل .

ويعتقد أعضاء هذه المنظمة أن الاستيطان اليهودي « ليهودا والسامرة » شرط مسبق لتحقيق عملية الخلاص . كما يعتبرون الانسحاب منهما خطيئة كبرى ، فالتوراة تحرم تحريماً قاطعاً نقل أي جزء من الأراضي المقدسة إلى الحكم الأجنبي ، بل إن مجرد مناقشة التنازلات الإقليمية إلى العرب يعدّ إساءة لإسم الله .

وقد بدأت « جوش إيمونيم » نشاطها الاستيطاني خلال عامي ١٩٧٤ و ١٩٧٥ بمحاولة إنشاء مستوطنة في منطقة نابلس ، ولكن الجيش أحبط ثمانى محاولات لها في هذا الشأن ، ثم نجحت في إقامة مستوطنة في سبستيا في ديسمبر ١٩٧٥ .

وكان هدفها هو تحدى سياسة حزب العمل وحمله على عدم التخلي عن أى جزء من الأراضي المحتلة - وخاصة فى الضفة الغربية - بعد أن حركت حرب أكتوبر ١٩٧٣ مساعى السلام . وقد أكسبت مشاركة أعضاء جوش إيمونيم من اليهود الأرثوذكس فى هذه الحرب ثقتهم بأنفسهم ، وضمت الحركة كثيرا من أعضاء حركة أرض إسرائيل الكاملة ، كما لقيت تأييد عدد من الشخصيات السياسية البارزة من ذوى الاتجاهات اليمينية وخاصة ميناحيم بيجين وأرييل شارون . وفى أول مايو ١٩٧٦ ، نظمت مسيرة ضخمة شارك فيها ٢٠ ألفا من أنصارها طافوا فى الضفة الغربية لإظهار لقوة حركتهم .

ومع فوز تكتل الليكود فى انتخابات عام ١٩٧٧ ، أصبح نشاط جوش إيمونيم محل تشجيع وتأييد الحكم .

وقد تحول الحزب القومى الدينى - الذى دأب على المشاركة فى ائتلافات الحكومات العمالية ، وكان ينتهج سياسة وسطا - وتخلي عن اتجاهاته السابقة وتحالف مع الليكود فى حكومة بيجين وأصبح لا يختلف فى مواقفه عن بقية الأحزاب والحركات الأصولية مثل أجودات إسرائيل وكتلة جوش إيمونيم . وأصبح الائتلاف الحكومى الذى شكله ميناحيم بيجين يضم تحالفا يمينيا سياسيا ودينيا شديد التطرف والتمسك بأرض إسرائيل واستيطان كل أجزائها ، وجمعت بين أحزاب الحكومة أيديولوجية تربط بين المعتقدات الدينية والاستراتيجية الأمنية فيما يتعلق بسياسة الاستيطان ومستقبل الأراضي الفلسطينية .

وما إن شكل بيجين حكومته - المؤلفة من الليكود والحزب القومى الدينى والجناح المتطرف من أجودات إسرائيل - حتى توجه لزيارة الحاخام تسفى كوك حيث قبل يده وسأله البركة .

وقد تضمن برنامج الحكومة الاستيطانى - الذى قامت لجنة دروبلز بإعداده بالتنسيق مع منظمة الصهيونية العالمية - المصادرة العاجلة لأراضى الدولة وتنفيذ خطة خمسية لبناء ما بين ١٢ و ١٥ مستوطنة سنويا بحيث يصل عدد المستوطنين إلى ١٢٠ ألف مستوطن . وصرح دروبلز بأن الاستيطان فى أرض إسرائيل كلها هو من أجل الأمن كما أنه حق لها . ويجب ألا يكون قاصرا على بناء المستوطنات حول تجمعات الأقلية (ويعنى الفلسطينين) بل وإقامتها فيما بينها طبقا لبرنامج استيطان الجليل وغيرها وبهدف تقليل احتمال أى تطور نحو إقامة دولة عربية أخرى فى تلك المناطق .

وعندما واجهت حكومة ييجين المشكلة القانونية التي ترتبت على حكم المحكمة العليا الإسرائيلية في قضية مستوطنة إيلون موريه ، التي رفضت فيه الأخذ بحجة الاعتبارات الأمنية التي ادعتها الحكومة وأقرت مبدأ عدم شرعية بناء المستوطنات لأسباب سياسية على أراض مملوكة ملكية خاصة ، عندئذ لجأت الحكومة إلى اعتبار كافة الأراضي التي لا يثبت أصحابها ملكيتهم لها بالمستندات والسجلات من أراضي الدولة . وخلال ثلاث سنوات ونصف ، أقامت حكومة ييجين أكثر من ٤٠ مستوطنة ، وارتفع عدد المستوطنين إلى ١٧٥٠٠ وبلغ مجموع ما تم الاستيلاء عليه ٣١٪ من أراضي الضفة الغربية في الفترة من ١٩٧٧ حتى ١٩٨١ . وقد اتبعت سياسة الضم الفعلي للضفة الغربية ، فأصبح للمستوطنين مجالسهم التي تصدر القرارات المتعلقة بشئونهم في ظل نظام من اللامركزية الإدارية ، ولا تطبق عليهم القوانين السارية في شأن الفلسطينيين ، وإنما يظلون خاضعين للقانون الإسرائيلي والمحاكم الإسرائيلية . وقد أصبح المستوطنون محل تشجيع الحكومة التي أغدقت عليهم كل المزايا .

وقد وصف أحد الكتاب ما أسماه « بصهيونية ييجين الجديدة » بأنها « قسمت المناطق المأهولة في الضفة الغربية إلى قطاعات أصغر ، وضاعفت من الوجود الإسرائيلي فيها عن طريق شراء الأراضي ، والاستيلاء على الدومين العام ، واستغلال الأراضي المتروكة وإعادة توزيع أراضي الدولة ، وأنفقت مائة مليون دولار سنوياً في برنامج واسع لإقامة البنية الأساسية ، وربطت بين شبكات الكهرباء ، وفرضت رقابة على توريد المياه ، ومدت نطاق تطبيق القانون الإسرائيلي (إلى المستوطنات والمستوطنين) . وعن طريق كل هذه الإجراءات ، انتهت الحكومة في عام ١٩٨١ إلى تنفيذ ما التزمت به من إدماج يهودا والسامرة دون رجعة في نطاق إسرائيل واسترداد أرض إسرائيل (*)» .

الحكم الذاتي الفلسطيني :

نص اتفاق كامب ديفيد - الذي وقعه الرئيس أنور السادات ، ورئيس الوزراء الإسرائيلي ميناخيم بيجين في ١٨ سبتمبر ١٩٧٨ على أن يتمتع السكان الفلسطينيون

فى الضفة الغربية وقطاع غزة بالحكم الذاتى الكامل خلال فترة انتقالية مدتها خمس سنوات ، على أن تجرى خلال هذه الفترة المفاوضات للاتفاق على الوضع النهائى لهذه المناطق .

وقد قامت مصر وإسرائيل بالتفاوض خلال الأعوام من ١٩٨٠ حتى ١٩٨٢ لوضع الأحكام التفصيلية الخاصة بإقامة السلطة الفلسطينية وتشكيلها ووظائفها ، وذلك بعد أن رفض الفلسطينيون والأردنيون المشاركة فى هذه المفاوضات .

وسرعان ما ظهر اتساع الهوة بين مفهوم كل من مصر وإسرائيل لذلك النظام الذى اتفقا فى كامب ديفيد على إقامته . فقد كانت مصر ترى أن يكون الحكم الذاتى كاملا يخول للفلسطينيين سلطات حقيقية تشريعية وتنفيذية وقضائية ، وأن يكون خطوة مرحلية نحو تقرير مصيرهم وإقامة دولتهم المستقلة . أما حكومة بيجين ، فلم ترفيه أكثر من نظام من الإدارة الذاتية المحدودة تحت السيطرة والإشراف الكاملين لإسرائيل بحيث ينتخب مجلس إدارى من ١٢ - ١٤ عضوا يتولى كل منهم إدارة قطاع معين بشرط التنسيق والتعاون مع السلطة الإسرائيلية ، وفى الحدود التى تسمح بها إسرائيل والتى تبقى لها سلطة الأمن كاملة ، فضلا عن السلطات الأخرى التى تحتفظ لنفسها بها فى كافة المجالات ، والحكم الذاتى قاصر على السكان أما الأرض فهى أرض إسرائيل .

وقد تعثرت المباحثات ، وتوقفت أكثر من مرة ، إلى أن تلقت الضربة القاضية فى صيف عام ١٩٨٢ عندما قامت إسرائيل بغزو لبنان .

وقد رفض الفلسطينيون اتفاق كامب ديفيد ، ووقفت جميع الدول العربية إلى جانبهم ، وفرضت على مصر مقاطعة استمرت عشر سنوات .

وفى الأراضى الفلسطينية المحتلة ، تصاعدت المقاومة لذلك الاتفاق ، واستخدمت حكومة بيجين كافة وسائل القمع لضرب العناصر المؤيدة لمنظمة التحرير الفلسطينية .

ولجأ أرييل شارون إلى محاولة تجميع قوى سياسية فلسطينية لمواجهة منظمة التحرير وتمهيد الطريق لتطبيق الحكم الذاتى بالمفهوم الإسرائيلى . فقام بإنشاء ما يعرف بروابط القرى من عناصر عميلة تولى شراءها ومنحها كثيرا من المزايا والسلطات ، وزودها بالسلاح بهدف التصدى للعناصر القومية الفلسطينية . وكان

تفكير شارون ينطلق من فهم خاطئ لحقيقة المد القومي الفلسطيني ، إذ كان يتصور أن الفلسطينيين يؤيدون دعوة المنظمة إلى المقاومة والنضال بدافع الخوف من الأعمال الانتقامية ، وأن غالبية الفلسطينيين مسالمون ، وكفى تشجيعهم على الوقوف في وجه منظمة التحرير وأنصارها وتزويدهم بالسلاح الذي يحمون به أنفسهم وتقريبهم إلى السلطة وتحقيق منافعهم الذاتية لكي يتسنى تطبيق نظام الحكم الذاتي والتغلب على معارضة الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة له . وقد فشل مخطط شارون فشلا ذريعا ، فراح يفكر في توجيه ضربة قاصمة للمنظمة في عقر دارها في لبنان .

الغزو الإسرائيلي للبنان :

كانت خطة آرييل شارون - الذي أصبح وزيرا للدفاع - خطة طموحة . فقد تصور أن غزو إسرائيل للبنان سوف يمكنها من القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية ، وإقامة نظام حكم عميل في لبنان يقوم بعقد الصلح مع الدولة العبرية ، ويؤمن حدودها الشمالية ، ويترتب على ذلك عزل سوريا ، وإرغامها على إقامة السلام مع إسرائيل بشروط الأخيرة .

وقد تمكن شارون من إقناع بيجين بخطته ، كما حصل من وزير الخارجية الأمريكية ألكسندر هيج على الضوء الأخضر لتنفيذها .

وبدأ الغزو في ٦ يونيو ١٩٨٢ ، ولأول مرة في تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي ، تقوم إسرائيل بحصار عاصمة عربية (بيروت) وقصفها من الأرض والجو والبحر .

فعندما أعلن ياسر عرفات عن عزمه على تحويل بيروت الغربية إلى ستالينجراد أخرى ، فرض شارون عليها حصار ٤٠٠ دبابة وألف مدفع صبت عليها خلال شهرين وابلا من القذائف وألقت عليها الطائرات آلاف القنابل والصواريخ ، وهدمت مئات من المنازل .

وبعد وساطة أمريكية تولاها فيليب حبيب ، غادرت قوات منظمة التحرير الفلسطينية ورجالها الأراضي اللبنانية ، وانتقلت قيادتها إلى تونس .

ولم يتحقق هدف شارون الخاص بالقضاء على المنظمة رغم مغادرتها لبنان ، كما لم تتحقق بقية أهدافه .

لم تنجح إسرائيل في فرض حكومة لبنانية عميلة ، فقد قُتل بشير الجميل الذي كانت تعول عليه . ولم تصدق لبنان على الاتفاقية التي عقدها معه إسرائيل تحت ضغط الحرب الشرسة ، والتي كانت تأمل أن تحقق لها السلام وتخول لها حق التدخل في الأراضي اللبنانية لحماية أمنها . واضطرت إسرائيل إلى سحب قواتها إلا من منطقة أمنية لاتزال تحتلها في جنوب لبنان .

وإذا كانت منظمة التحرير الفلسطينية قد غادرت الأراضي اللبنانية ، فإن المقاومة في الجنوب اللبناني لا تزال حتى اليوم تمارس نشاطها - على أيدي عناصر حزب الله وغيره - وتطلق نيرانها على القوات الإسرائيلية في الشريط المحتل ، وصواريخها على المستوطنات في شمال إسرائيل .

وقد كان للغزو الإسرائيلي للبنان آثاره السلبية الخطيرة على إسرائيل في الداخل والخارج . فقد ظهر طابعها العدواني للعالم الذي جمع على إدانتها ، وتوترت علاقاتها مع مصر التي سحبت سفيرها من تل أبيب ، وقطعت مباحثات الحكم الذاتي الفلسطيني ، وقامت بتوفير الحراسة للسفن التي نقلت قوات منظمة التحرير . وأدان العالم بأسره مذبحة صابرة وشاتيلا التي قامت بها عناصر من الفلجا الموارنة بالتواطؤ مع القوات الإسرائيلية ، وراح ضحيتها المئات من الفلسطينيين العزل في مخيماتهم ، وحمل إسرائيل المسؤولية .

وأدت الحرب إلى انقسام خطير بداخل إسرائيل ، وسارت المظاهرات الضخمة تطلق الصيحات العدائية ضد بيجين وشارون ، وتطالب بإنهاء الحرب والانسحاب من لبنان . وشكلت لجنة تحقيق إسرائيلية أدانت شارون وطلبت عزله من منصبه .

ولاشك في أن فشل مخطط الغزو الإسرائيلي كان من بين العوامل التي أصابت ميناحيم بيجين بالاكئاب ، وحملته على الاستقالة والانسحاب من الحياة السياسية ، وخلفه اسحق شامير في رئاسة الوزارة في ١٥ سبتمبر ١٩٨٣ .

اسحق شامير في الحكم :

ولد اسحق شامير في بولندا عام ١٩١٥ ، وانضم إلى منظمة بيطار للشباب الصهيوني ، وهاجر إلى فلسطين عام ١٩٣٥ حيث التحق بعد عامين بمنظمة ايتسل ثم بمنظمة ليحي الارهابيتين ، وتولى قيادة الأخيرة بعد مقتل رئيسها إبراهيم شيترن . وقد

قبضت عليه السلطات البريطانية مرتين ، وتمكن من الهرب فى كل منهما . وبعد قيام دولة إسرائيل ، تولى منصبا كبيرا فى المخابرات الإسرائيلية (الموساد) ، كما عمل بالتجارة . وفى عام ١٩٧٠ ، انتخب عضوا فى اللجنة المركزية لحزب حيروت ، وأصبح رئيسا للجنة عام ١٩٧٥ . وانتخب رئيسا للكنيست عام ١٩٧٧ ، ثم عين وزيراً للخارجية فى حكومة بيجين عام ١٩٨٠ . وبعد اعتزال الأخير ، تولى رئاسة الوزراء ، وتبادل هذا المنصب مع شيمون بيريس فى الوزارة الائتلافية من عام ١٩٨٤ ، كما تولى رئاسة الوزراء من عام ١٩٨٨ حتى عام ١٩٩٢ .

وقد غلب على شخصية شامير ومواقفه العنف والتطرف ، فقد كان من العناصر القيادية فى المنظمين الإرهابيين اللتين قامتا باغتيال اللورد موين المندوب السامى البريطانى فى مصر ، والكونت برنادوت وسيط الأمم المتحدة ، وارتكاب مذبحه ديرياسين ، وأجرت إحداهما (إيتسل) الاتصالات بممثلى ألمانيا النازية خلال الحرب العالمية الثانية للتعاون معها ضد بريطانيا ، مقابل موافقتها على إنشاء دولة يهودية فى فلسطين أو مدغشقر .

كما أنه عارض بشدة اتفاق كامب ديفيد أثناء توليه منصب رئيس الكنيست خلافا لما يقتضيه انتماءه الحزبى ، ثم أصبح منذ توليه مناصبه الوزارية من أشد المتمسكين بهذا الاتفاق . وقد أدانته لجنة كاهان عن مذبحته صابرة وشاتيلبا باعتباره وزيرا للخارجية .

وقد شهدت الفترات التى تولى فيها شامير الحكم أحداثا هامة . فقد أدت عمليات الاستيطان المكثف من جهة ، وأعمال القمع تجاه الفلسطينيين إلى نشوب الانتفاضة الفلسطينية . كما أدى انهيار النظام الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى إلى فتح الباب أمام هجرة الآلاف من اليهود إلى فلسطين . ووقع الغزو العراقى للكويت وتعرضت إسرائيل لصواريخ صدام حسين . وأخيرا ، فقد عقد مؤتمر مدريد للسلام حيث بدأت المفاوضات المباشرة بين إسرائيل والأطراف العربية لأول مرة .

واتسمت مواقف شامير تجاه تلك الأحداث بالتطرف (وإن اتخذ موقفا معتدلا خلال حرب الخليج مستجيبا لطلب الولايات المتحدة عدم الرد أو التدخل فى الحرب) . ففيمما يتعلق بالاستيطان الإسرائيلى ، كانت مواقف شامير أشد تطرفا من موقف بيجين . فلم يخضع سياسة الاستيطان لأية قيود أو ضوابط ، وإنما أطلق

العمليات الاستيطانية فى كل أجزاء الضفة الغربية (بما فيها القدس) وقطاع غزة ، وقام بزرع عشرات المستوطنات حول المدن والقرى الفلسطينية وفيما بينها ، بقصد خلق حقائق جغرافية وسكانية تحول دون إقامة كيان فلسطينى منفصل عن إسرائيل . وقد أدى تطبيق هذه السياسة ، وخاصة العمل على توطين آلاف المهاجرين القادمين من الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوروبا ، إلى إنهاك الاقتصاد الإسرائيلى الذى كان يعاني من أزمة خانقة . وعندما توجه إلى الولايات المتحدة لطلب ضمانها لقرض بمبلغ عشرة آلاف بليون دولار ، تمسكت إدارة الرئيس بوش بعدم الاستيطان فى الأراضى المحتلة . وأدى توتر العلاقات بين البلدين وسوء الأوضاع الاقتصادية فى إسرائيل إلى سقوط حكم الليكود فى انتخابات عام ١٩٩٢ .

أما عن الانتفاضة الفلسطينية ، فقد تفجرت نتيجة أعمال القمع والاضطهاد الذى لقيه الفلسطينيون على أيدي السلطات الإسرائيلية ، وعمليات مصادرة الأراضى والاستيطان المكثف فى كل مكان ، واستهدفت إنهاء الاحتلال الإسرائيلى ، وقد اتبعت حكومة شامير سياسة خرقاء تجاه الانتفاضة ، محاولة قمعها بالقوة وكسر العظام (على حدّ تعبير اسحق رابين وزير دفاع شامير) ، ولما تيقنت من فشل هذه السياسة اضطّر شامير إلى تقديم مبادرته للسلام .

التخطيط لنسف المسجد الأقصى :

فى أغسطس ١٩٦٩ ، قام أحد اليهود الاستراليين بإشعال النار داخل المسجد الأقصى .

وفى أوائل عام ١٩٧٩ اجتمع عدد من أتباع الحاخام ليفنجر حيث ناقشوا وسائل عرقلة تنفيذ اتفاق كامب ديفد وإعاقة الانسحاب الإسرائيلى من سيناء .

وفى هذا الاجتماع بحثت فكرة نسف المسجد الأقصى ، ودرست عدة خطط لتنفيذها . وكان ميناحيم ليفنى قائد إحدى كتائب الاحتياطى قد قام بتصوير جوى للمسجد . وقد استبعدت فكرة نسف المسجد من الجو ، واتجه المجتمعون إلى شن هجوم أرضى يقوم به فريق بنسف المسجد بالقنابل والمتفجرات مع أخذ الاحتياطات اللازمة لعدم إصابة اليهود من سكان الحى اليهودى وعدم الإضرار بحائط المبكى .

وكان تقدير المتآمرين أن نسف المسجد سوف يؤدي إلى سلسلة من ردود الفعل ،
إذ المتوقع أن ترتكب المذابح ضد اليهود في أنحاء العالم ، ويؤدي ذلك بالتالي إلى
دفع إسرائيل إلى مهاجمة الدول العربية مما يتيح الفرصة لطردهم الفلسطينيين من « أرض
إسرائيل » . وقد أجل تنفيذ الخطة مؤقتا للقيام بعمليات أخرى .

وشكل تنظيم إرهابي سري « ماختيريت » وقام بتفجير سيارة بسام الشكعة عمدة
نابلس وأدى التفجير إلى فقدانه رجله ، وتفجير سيارة كريم خلف مما أفقده قدمه ،
كما وضع التنظيم قنابل في مسجد وأماكن أخرى أدت إلى إصابة عدد من
الفلسطينيين ، ودبر خطة لتدمير الحرم الشريف .

وبالرغم من تمكن جهاز « شين بيت » الإسرائيلي من التعرف على شخصيات
المخربين ، إلا أن ميناخيم بيجين لم يشأ تقديمهم للمحاكمة بسبب صلاته بقيادات
جوش إيمونيم . غير أن عدداً من الليبراليين الإسرائيليين - الذين روعتهم هذه الموجة
من العنف - تقدموا في أوائل عام ١٩٨٠ بطلب إلى المدعى العام لإجراء التحقيق ،
وشكلت لجنة برئاسة يهوديت كارب للتحقيق ، ووجهت في تقريرها الاتهام إلى
رجال البوليس والجيش الإسرائيليين بالتراخي في منع هذه الاعتداءات على العرب ،
ثم استقال كارب بسبب عدم نشر تقريره .

وكانت الشرطة الإسرائيلية قد اكتشفت في مايو ١٩٨٠ مؤامرة لنسف المسجد
الأقصى بعد عثورها على مخبأ كبير للمتفجرات على سطح أحد المباني في القدس
القديمة ، وتبين أن اثنين من الجنود على صلة بحركتي جوش إيمونيم وكاخ كانا
يتآمران لنسف المسجد .

وفي مارس ١٩٨٣ ، قبضت الشرطة على عشرات من اليهود المتطرفين - معظمهم
من جوش إيمونيم - بعدما استغاث أحد الحراس المسلمين بها لسماعه أصوات معاول
تحفر تحت الأرض . وتبين أنهم قد خططوا للاستيلاء على الحرم الشريف .

وفي ٢٧ أبريل ١٩٨٤ ، اكتشفت مؤامرة لنسف المسجد الأقصى وقبة الصخرة
بعد اعتقال ٢٥ من دعاة جوش إيمونيم اتهموا بوضع عبوات ناسفة تحت خمس
حافلات عربية ، وقد أحبطت الشرطة المحاولة في اللحظة الأخيرة . وأثبتت
التحقيقات مسؤولية المتهمين عن الاعتداءات على رؤساء البلديات الفلسطينيين وعلى
الكلية الإسلامية ، وتدبير خطة لتدمير الحرم الشريف . وقد ثبت قيامهم باعداد خطة

لنسف المسجد الأقصى وقبة الصخرة وتطويرها بعناية خلال السنوات من ١٩٧٨ إلى ١٩٨٢ . أما المتهمون فقد كانوا شخصيات بارزة فى جوش إيمونيم التى بادرت بإظهار التعاطف والتأييد لهم والتماس العفو الشامل عنهم .

والواقع أن الاعتقاد اليهودى بأن الهضبة الصغيرة الواقعة خلف الحائط الغربى من مدينة القدس القديمة هى جبل مورياه التوراتى الذى كاد سيدنا إبراهيم يضحى فيه بابنه (اسحق) كما بنى فيه هيكل سليمان ، هذا الاعتقاد قد حمل عدداً من الجماعات اليهودية على المطالبة بإعادة بناء الهيكل فى موقع المقدسات الإسلامية (المسجد الأقصى ومسجد الصخرة) .

وقد تكررت محاولات التحرش بالمصلين فى المسجد الأقصى والمترددين على الحرم الشريف ، واقتحام المسجد ؛ بل إن بعض المتطرفين اليهود طالبوا الحكومة الإسرائيلية بالسماح لهم بالصلاة بداخله .

(وقد أصدرت المحكمة العليا الإسرائيلية حكماً يستجيب لمطلبهم ، وأصبح الموضوع على جدول أعمال حكومة نيتانيا هو الذى يشغل هدف التهويد الكامل والعاجل للقدس وتكثيف الاستيطان الأولى الأولى بين بنوده) .

حصار حكم الليكود :

لاشك فى أن عقد معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل يعدّ من أهم إنجازات ميناخيم بيجين . فقد كان إبرام الصلح بين الدولة العبرية وكبرى الدول العربية حدثاً بالغ الأهمية فى تاريخ النزاع العربى الإسرائيلى الذى امتد لما يقرب من مائة عام .

وإذا كانت مصر قد حققت السلام ، ووضعت حدّاً لحروبها مع إسرائيل ، متطلعة إلى أن يعم السلام كل دول المنطقة ، وأن ينال الفلسطينيون حقوقهم المشروعة فى العودة وتقرير المصير وإقامة دولتهم المستقلة ، فإن إسرائيل قد استهدفت من إبرام المعاهدة مع مصر إقامة سلام منفرد معها يخرجها من دائرة المواجهة ، ولا يضع حدّاً للمطامع الإسرائيلية فى بقية الأراضى العربية المحتلة ، لإعادة سيناء إلى مصر كانت - بالنسبة لليكود - آخر ما تقدمه من تنازلات إقليمية .

وقد ظل بيجين طوال مفاوضاته مع مصر متمسكاً بأيدلوجيته بشأن « أرض

إسرائيل» ، التى لا تقتصر على الضفة الغربية وقطاع غزة ، بل تشمل مرتفعات الجولان أيضا ، وظل متمسكا حتى اللحظة الأخيرة باحتفاظ إسرائيل بمستوطناتها فى سيناء إلى أن وافق الكنيست على إلزائها من أجل السلام مع مصر .

والواقع أن عهد الليكود قد تميز بالتحالف بين الحكم والأصولية الدينية اليهودية ، فقويت شوكة جوش إيمونيم ، وإزداد نفوذ المستوطنين وأصبحوا منذ ذلك الوقت جماعة ضغط قوية النفوذ والتأثير على الحكومات الإسرائيلية .

ولم تعد حكومات الليكود تسمح لأية عقبات قانونية أو سياسية أن تقف فى طريق تنفيذ خططها الاستيطانية . فقد كانت - على حد تعبير ميرون بنيفستى فى تقريره Data Base Project - تستخدم فى سعيها للاستيلاء على الأراضى كل الوسائل القانونية وشبه القانونية ، وتبتكر الوسائل الجديدة لتحقيق أهدافها .

وتمثل حصاد حكم الليكود فى تكثيف الاستيطان حتى بلغ عدد المستوطنات ١٦٥ (عدا القدس) مستوطنة ، وعدد المستوطنين مايزيد على ١٤٥ ألف مستوطن ، وفى استعمال أشد أساليب القمع ضد الفلسطينيين ، وضم القدس والجولان ، وفى غزو لبنان بما صاحبه من مذابح ودمار ، وتدمير المفاعل النووى العراقى .

ولعل من أخطر هذا الحصاد بروز الأصولية اليهودية ونموها لتصبح عاملا مؤثرا فى الحياة السياسية الإسرائيلية ، ولتجعل من أعمال العنف ، والعنف المضاد ظاهرة مستمرة فى الصراع العربى الإسرائيلى ، كما تعرض البلاد للحروب الدينية بين السكان .

ويذكر إيان لوستيك - فى دراسته القيمة بشأن الأصولية اليهودية فى إسرائيل - إن «جوش إيمونيم» قد تطورت بين عامى ١٩٧٧ و ١٩٨٤ إلى حركة شاملة تضم منظمات تتخصص كل منها بمظهر من مظاهر الصراع الأصولى الأشمل والتوجه إلى القواعد الانتخابية ، وانضم إليها أعضاء من حركة الصهيونية العمالية النضالية وحزب حيروت . وقد أنشأت هيئة تمثيلية عامة هى «يشع» تضم ممثلين للمجالس الإقليمية التى أسستها مجموعات من مستوطنات الضفة الغربية وقطاع غزة ، والتى تتولى الدفاع عن مصالح المستوطنين لدى وزارات الحكومة وإدارات الحكم العسكرى . وفى ديسمبر ١٩٧٩ ، أصدرت مجلة «نيكوداه» التى تعالج الموضوعات التى تهمها . ولكنها ، بالرغم من المقاومة المستميتة لإزالة مستوطنة ياميت من سيناء وإجلاء

مستوطنيتها ، لم تنجح فى إثناء حكومة بيجين عن تنفيذ التزاماتها فى هذا الشأن ، وإنما قام بعض أعضائها بتأسيس منظمة « العودة إلى سيناء » بهدف إعادة الحكم اليهودى فيها . وفى عام ١٩٨٥ ، شكلت « جوش إيمونيم » أمانة سر من ٥٠ عضواً ولجنة عمل من ١٠ أعضاء ، كما أعلنت خطة لإنشاء مجلس تربوى يضم عدداً من المحاضرات والعلماء .

واعتمدت الحركة استراتيجية تستهدف إفشال مفاوضات السلام بين إسرائيل والعرب ، وشنت العديد من الاعتداءات على الفلسطينيين وممتلكاتهم من سيارات ومنازل ومتاجر . وشاركتها أهدافها حركات أصولية أخرى مثل كاهانا وعصابات جبل الهيكل التى تطالب بنسف المسجد الأقصى ، وإقامة هيكل سليمان مكانه .

وقد تفاقم خطر التطرف الدينى من جانب جوش إيمونيم ، وتلك الحركات الأصولية إلى حد أن أصبح يهدد بقيام حرب دينية بين اليهود والمسلمين والمسيحيين بسبب إدعاءاتها بشأن الأماكن المقدسة .

الفصل الثامن

السلام بين الليكود والعمل

الصراع العربى الإسرائيلى فى عالم متغير :

عقد مؤتمر الأمن والتعاون الأوربى فى هلسنكى عام ١٩٧٥ ، ليجتمع فيه ممثلو ٣٢ دولة أوربية مع الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وكندا ، ويضعوا أسس الأمن الأوربى والتعاون فى مجالات كثيرة . وقد كانت لهذا المؤتمر والاجتماعات المنبثقة عنه آثار بعيدة فى تطور العلاقات الدولية ، وخاصة فى التأثير على الأوضاع داخل الاتحاد السوفيتى . ومع تولى ميخائيل جورباتشوف قيادة الاتحاد السوفيتى ، بدأت التغييرات الجذرية فى النظام الشيوعى ، ثم تفكك الاتحاد السوفيتى وكتلته الاشتراكية ، وتبدلت سياسة روسيا المساندة للأنظمة والحركات التحررية فى العالم الثالث إلى سياسة وفاق وتعاون مع الولايات المتحدة والدول الغربية .

وهكذا فقدت الدول العربية الدعم الذى كانت تتلقاه من الدولة العظمى الثانية ، ووجدت نفسها فى عالم متغير يسعى إلى إنهاء النزاعات الإقليمية أو احتوائها ، وتسوده اتجاهات الانفتاح والسوق الحرة والنزعات الاستهلاكية ، لتحل محل الاتجاهات الاشتراكية وتضعف فيه الأيديولوجيات السابقة ويتجه نحو التكتلات الاقتصادية الإقليمية ، ثم وقع الغزو العراقى للكويت ، وتردى الموقف العربى إلى أسوأ حالاته .

وكانت لكل هذه العوامل آثارها على الصراع العربى الإسرائيلى ، والمسمى المبدولة لحله . كانت المساعى تبذل منذ حرب ١٩٧٣ لإيجاد حل لهذا الصراع . وعقدت مصر أول معاهدة سلام مع إسرائيل . وبالرغم من القطيعة العربية لمصر ، فإن

الجهود لم تتوقف طويلا . فقد حاولت الولايات المتحدة أكثر من مرة دفع عملية السلام ، وقدم الرئيس ريجان مبادرته في أول سبتمبر ١٩٨٢ .

وبدأ الملك حسين يحاول من جانبه تحريك عملية السلام بالاتفاق مع منظمة التحرير الفلسطينية ، فعقد معها اتفاقا على تشكيل وفد أردني فلسطيني مشترك للتفاوض مع أجل السلام .

وتطور موقف منظمة التحرير ، حيث حصلت على قسط كبير من الاعتراف الدولي بعد أن اعترفت القمة العربية في الرباط عام ١٩٧٤ ، بالمنظمة ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني ، ودعى ياسر عرفات لإلقاء خطابه الشهير أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة . كما تطور موقف الدول العربية نحو قبول إسرائيل ، والاعتراف بوجودها كدولة من دول المنطقة ، وتضمنت المبادرة العربية في فاس في عام ١٩٨٢ اعترافا ضمينا بهذا الوجود .

ولكن الحدث الذي كان له أثره الحاسم في دفع عملية السلام ، كان بلا شك تفجير الانتفاضة الفلسطينية في ديسمبر ١٩٨٧ ، فقد أظهرت لإسرائيل وللعالم بأسره أن الشعب الفلسطيني قد هب لمحاربة الاحتلال - ولو بالحجارة - وأنه لن يكف عن المقاومة إلا إذا تخلص من الأوضاع التي ظل يرزح تحتها منذ عام ١٩٦٧ .

وبدأ التحرك بخطى سريعة من أجل إيجاد تسوية سياسية للصراع .

أما منظمة التحرير الفلسطينية ، فقد أصدر مجلسها الوطني في اجتماعه بالجزائر في نوفمبر ١٩٨٨ قرارات تاريخية ، تضمنت إلى جانب إعلان قيام الدولة الفلسطينية ، الدعوة إلى عقد مؤتمر دولي تحت رعاية الأمم المتحدة ، وبمشاركة كل أطراف النزاع بما فيها المنظمة على أساس قراري مجلس الأمن رقمي ٢٤٢ و ٣٣٨ . وكان قبول المنظمة لهذين القرارين نقطة تحول فتحت الطريق أمام مساعي السلام ، فبدأ الحوار بين الولايات المتحدة والمنظمة ، وقدم جورج شولتز مبادرته في مارس ١٩٨٩ ، على أساس الدعوة لعقد مؤتمر دولي . ثم تقدم اسحق شامير بمبادرة في مايو ١٩٨٩ . وواصل جيمس بيكر وزير الخارجية المساعي الأمريكية ، كما اقترحت مصر عدة نقاط تعديلا لمبادرة شامير . ولكن حرب الخليج علقت هذه المساعي إلى أن استؤنفت في أعقابها ، وأدت التطورات المشار إليها ، والتي غيرت طبيعة العلاقات الدولية والأوضاع العربية إلى عقد مؤتمر مدريد في ٣٠ أكتوبر ١٩٩١ ، وفقا للشروط التي وضعها اسحق شامير لانهقاده .

اشترط شامير أن يكون مؤتمر مدريد مجرد إطار للمفاوضات المباشرة التي تجرى بين إسرائيل وكل من الأطراف العربية منفردة ، وأن يكون المؤتمر عديم السلطات والصلاحيات لا يملك تقديم المقترحات أو يتدخل في المفاوضات ، وأن يكون التمثيل الفلسطيني فيه من خلال وفد أردني فلسطيني مشترك ، وألا يكون من بين الفلسطينيين أعضاء من خارج الأراضي المحتلة أو من القدس ، وألا يمثل الوفد منظمة التحرير الفلسطينية .

وقد قبل جيمس بيكر الشروط الإسرائيلية ، ولم تكن أحوال العرب تسمح برفضها . وعقدت في واشنطن خمس جولات تفاوضية في ظل حكومة الليكود ، وخمس أخريات في عهد حكومة العمل .

سلام الليكود :

تمسك اسحق شامير بأن يرأس وفد بلاده في مؤتمر على مستوى وزراء الخارجية . وألقى كلمة عكست مفاهيم الليكود ، فأكد السيادة اليهودية على أرض إسرائيل ، وتحدث عن تاريخ الشعب اليهودي إلى أن أقام دولته في فلسطين ، وحمل العرب مسئولية النزاع العربي الإسرائيلي ، فهم الذين رفضوا الدولة اليهودية وحاربوها ، وهم الذين رفضوا قرار التقسيم (وتجاهل أن أستاذه جابوتنسكي رفض أية تنازلات عن أرض إسرائيل بما فيها شرق الأردن) وأن قرار التقسيم يعتبر لاغيا ، كما استغل العرب الحرب الباردة لكي يحولوا المنطقة إلى ساحة قتال ، وتمكنوا - بالأغلبية العددية للدول الإسلامية والاشتراكية في الأمم المتحدة - من استصدار قرارات شوهت التاريخ .

أما السلام الذي اقترحه فهو السلام مقابل السلام ، فعلى الدول العربية الاعتراف بإسرائيل ، وعقد معاهدات معها تقرر بتوسع الدولة اليهودية في الأراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧ ، وحل القضية الفلسطينية على أساس اتفاق كامب ديفيد بمنح الفلسطينيين حكما ذاتيا (إداريا) .

وكان طبيعيا ألا تحرز المفاوضات العربية الإسرائيلية أى تقدم في عهد شامير . ففي المسار الأردني ، الفلسطيني ، ظل هم المفاوضات الإسرائيلي هو طمس الهوية الفلسطينية ، وإفراغ الحكم الذاتي المقترح من أى مضمون حقيقي . فهو يطلق على الضفة الغربية التسمية اليهودية « يهودا والسامرة » ، وغاية ما يسمح به هو إسناد

وظائف إدارية محدودة العدد ، لأشخاص محدودى العدد كذلك (١٢ وظيفة و ١٢ عضوا) ، يتولونها بشرط التعاون والتنسيق مع السلطات الإسرائيلية . وتظل إسرائيل هى المسيطرة على الأرض والمياه والأمن ، بل على أعمال السلطة الفلسطينية للحكم الذاتى بأكملها أما الأرض فهى أرض إسرائيل ولا حقوق للفلسطينيين فيها .

ولم يكن الأمر يختلف كثيرا فى بقية المسارات ، وإنما كانت مناورات ومماطلات لا شأن لها بالانسحاب الإسرائيلى من الأراضى العربية المحتلة .

وكان شامير صريحا عندما أعلن عقب سقوط حكمه أنه كان يعمل من أجل إطالة أمد المفاوضات لعشر سنوات .

وبدأت فى أعقاب مؤتمر مدريد مفاوضات متعددة الأطراف ، بمشاركة دول غربية وشرقية لوضع أسس نظام إقليمي جديد فى الشرق الأوسط ، يقوم على التعاون فى المجالات المختلفة بين دول المنطقة .

والواقع أن سياسة الليكود كانت - ولا تزال - قائمة على أسس الاستيلاء على الجولان السورية - وربط لبنان بقيود أمنية ثقيلة مع تقاسم المياه معه من مصادرها الواقعة فى الأراضى اللبنانية - والاستيلاء على الضفة الغربية (بما فيها القدس) وقطاع غزة ، ورفض إقامة دولة فلسطينية فيهما (واعتبار الأردن هى الدولة الفلسطينية) وأن يكون الحكم الذاتى الإدارى للسكان (دون الأرض) هو الوضع النهائى والحل الوحيد للقضية الفلسطينية . أما اللاجئون الفلسطينيون فلا مجال لعودة أى عدد منهم إلى « أرض إسرائيل » ، وإنما تحل مشكلتهم بجهد دولى على أساس توطينهم خارج إسرائيل . وأما القدس ، فتظل موحدة وعاصمة أبدية للدولة اليهودية .

سلام العمل :

دخل تجمع العمل انتخابات عام ١٩٩٢ ببرنامج مختلف عن برنامج الليكود . فقد طرح رؤية لشرق أوسط جديد يقوم على أسس التعاون فى مختلف المجالات ، وخاصة فى المجال الاقتصادى ، ووضع حد للحروب وسباق التسلح . وخلافا لمبادئ الليكود ، يتضمن برنامجهم للسلام تطبيق القرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ على كل الجبهات ، الأمر الذى يعنى استعداده للانسحاب من أجزاء من الضفة الغربية وقطاع غزة ، وعدم استبعاد الانسحاب من الجولان ، ولكنه فى الوقت ذاته يتضمن أن السلام

المستقر يتطلب حدودا يمكن الدفاع عنها (نظرية الحدود الآمنة) ويعتبر الأمن عاملا حاسما . ويعرض البرنامج حلولاً وسطاً إقليمية ومقايضة الأرض بالسلام وأمن إسرائيل .

وفيما يتعلق بالقضية الفلسطينية، يرفض البرنامج سيطرة إسرائيل على السكان الفلسطينيين ويعرض حكماً ذاتياً كاملاً معترفاً لهم بحقوقهم الوطنية، ومبدأ الاستعداد للتفاوض مع وفد فلسطيني (وعدم التمسك بأن يكون مشتركا مع وفد أردني) ، كما يلتزم بعدم إقامة مستوطنات جديدة أو توسيع المستوطنات القائمة باستثناء القدس وغور الأردن ، أما مشكلة اللاجئين ، فلا يختلف موقفه منها عن موقف الليكود .

وقد واصلت حكومة اسحق رابين مفاوضات واشنطن ، وبعد عدة جولات تفاوضية لم تحرز تقدماً كبيراً ، اتجه رابين إلى التفاوض مباشرة مع منظمة التحرير الفلسطينية ذاتها (بدلا من التفاوض مع وفد غير قادر على تقديم التنازلات اللازمة) ودخلت الحكومة الإسرائيلية معها في مفاوضات سرية في أوسلو ، انتهت إلى عقد إعلان المبادئ الذي اعتبره العالم اختراقاً حقيقياً في عملية السلام .

وتتمثل أهمية إعلان المبادئ في أنه يسجل اعتراف إسرائيل ومنظمة التحرير كل منهما بالآخر ، واعتراف إسرائيل بالحقوق الوطنية والسياسية للشعب الفلسطيني ، ويضع الخطوط الأساسية لتنفيذ الحكم الذاتي الفلسطيني الكامل بدءاً بقطاع غزة ومنطقة أريحا . ويتضمن الاتفاق بوجه خاص انسحاب القوات الإسرائيلية منهما ، ثم تسليم السلطة للفلسطينيين في بقية الضفة ، وإعادة انتشار القوات الإسرائيلية فيها تدريجياً ، وتشكيل قوة شرطة فلسطينية تتولى الأمن الداخلي للفلسطينيين ، كما يتضمن جدولاً زمنياً لتنفيذ ما نص عليه من خطوات ومراحل تنتهي ببدء مفاوضات للاتفاق على الوضع النهائي للضفة والقطاع .

غير أن رابين لم يحترم تلك التوقيتات ، بل أعلن منذ البداية أنه لا توجد مواعيد مقدسة ، وسيطرت عليه الهواجس الأمنية ، ووقع هو الآخر تحت ضغوط المستوطنين الإسرائيليين .

ووصل ياسر عرفات إلى غزة ليواجه كمّاً هائلاً من المشاكل والأزمات ، فلم يتلق الأموال التي وعدت بها الدول المانحة ، والتي كانت حاجته إليها ملحة ، ليس من

أجل إصلاح الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والصحية المتردية فى القطاع فحسب بل حتى لدفع رواتب الجنود ورجال الإدارة كذلك . ولم تتوقف معارضة الفلسطينيين والإسرائيليين على السواء لإعلان المبادئ وتصاعدت أعمال المقاومة المسلحة الفلسطينية ، كما تزايدت الأعمال العدائية من جانب المستوطنين الإسرائيليين ضد الفلسطينيين .

واتبعت حكومة رايبين سياسة المماطلة والمراوغة فى تنفيذ التزاماتها ، وظلت مسائل كثيرة معلقة دون حل حتى نهاية حكمها (ومنها الاتفاق على حدود منطقة أريحا ، والممر الأمن بينها وبين غزة ، ووضع المعابر بين غزة ومصر وبين الضفة والأردن) ، كما تقاعست عن تنفيذ التزاماتها بإعادة انتشار قواتها فى مدينة الخليل . ومع ذلك فإنه لا شك فى أن مفهوم العمل للحكم الذاتى الفلسطينى كان أكثر اعتدالا وجدية من مفهوم الليكود . ففى حين يظل الليكود متشبثا بأن يكون هذا الحكم عبارة عن وظائف إدارية محدودة ، يتولاها عدد من أعضاء السلطة الفلسطينية محدود بعددها (ولم يزد عن ١٢ - ١٤) ، وأن يكون منقطع الصلة عن الأرض - التى تظل السيادة عليها لإسرائيل - فإن الاتفاق الذى عقده حكومة رايبين مع منظمة التحرير الفلسطينية نقل إلى سلطة الحكم الذاتى غالبية السلطات (٣٧ سلطة) وزاد من عدد أعضائها المنتخبين إلى ٨٨ عضوا يتولون سلطات التشريع (المقيدة) وتنشئ منهم - ومن عدد إضافى - سلطة التنفيذ . وأجريت انتخابات حرة ومباشرة (حتى فى مدينة القدس رغم بعض القيود) يوم ٢٠ يناير ١٩٩٦ ، كما انتخب ياسر عرفات مباشرة رئيسا للسلطة .

أما عن إعادة انتشار القوات الإسرائيلية ، فقد نص الاتفاق على تقسيم الضفة الغربية ، إلى ثلاث مناطق تنسحب فى أولها القوات عن الست مدن الفلسطينية الرئيسية وما حولها ، أما المدينة السابعة - مدينة الخليل - فقد وضع لها نظام للانسحاب على مراحل مع بقاء عدد من القوات الإسرائيلية فيها حتى المرحلة الأخيرة (مرحلة مفاوضات الوضع النهائى) .

وكان واضحا منذ مفاوضات أوسلو أن الجانبين - الفلسطينى والإسرائيلى - لن يستطيعا التوصل إلى اتفاق دون إرجاء التفاوض على المشاكل الرئيسية ، فأرجئت إلى مفاوضات الوضع النهائى مشاكل القدس والمستوطنات واللاجئين والحدود

والترتيبات الأمنية والعلاقات مع الدول المجاورة (وأضافت إليها الاتفاقية الانتقالية الأرض والمياه والانسحاب من المنطقة الثالثة) .

وإذا كانت حكومة رابين (وبيريس من بعده) قد أبدت قدرا من المرونة فيما يتعلق بالحكم الذاتي الفلسطيني ، فإن مواقفها المعلنة من تلك المشاكل الرئيسية التي يتعين حلها لتسوية القضية الفلسطينية ظلت مترددة بين الرغبة في تسويتها نهائيا حتى تتمكن من إقامة السلام مع الدول العربية وبين التمسك بالأيديولوجية الصهيونية الموروثة . فظلت على موقفها المعارض لإقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة (حتى أزال حزب العمل من برنامجه الاعتراض على إقامة تلك الدولة في أواخر حكم شيمون بيريس) .

أما عن تصور حكومة العمل للمستقبل ، فقد كان رابين يعبر عنه بإقامة كيان فلسطيني - لا يصل إلى حد الدولة وإن كان يزيد على الحكم الذاتي - ويكون مرتبطا بكل من إسرائيل والأردن .

وأما عن القدس ، فقد ظلت متمسكة بأن تبقى مدينة موحدة ، وعاصمة أبدية لإسرائيل (وإن كانت مفاوضات سرية قد عقدت مع الفلسطينيين لإيجاد صيغة تسمح بنوع من الوجود للسلطة الفلسطينية فيها) .

وأما اللاجئون ، فلا يختلف بشأنهم موقف العمل والليكود ، وإنما يتفقان على رفض مبدأ عودتهم إلى إسرائيل ، بل ظلت حكومة العمل تماطل وتقيم العراقيل في سبيل عدم تنفيذ ما نصت عليه اتفاقاتها مع الفلسطينيين ، من السماح بعودة النازحين في حرب ١٩٦٧ إلى الضفة الغربية وقطاع غزة . وفيما يتعلق بالمستوطنات الإسرائيلية ، رفضت حكومة العمل إزالة أي منها خلال الفترة الانتقالية - حتى القائمة منها في مواقع متطرفة في قطاع غزة - بل إنها واصلت عمليات الاستيطان وأقامت المباني في المستوطنات القائمة وظلت تمالئ المستوطنين اتقاء لمقاومتهم ، وتتردد في الإفصاح عن نواياها بشأنهم قبل مفاوضات الوضع النهائي ، وعندما تزايدت المصادمات بين المستوطنين والفلسطينيين ، اتجه تفكير رابين إلى الفصل بين المستوطنات وبين المدن والقرى الفلسطينية عن طريق إقامة شبكة من الطرق الالتفافية يستخدمها المستوطنون للتنقل بين المستوطنات المختلفة وبينها وبين إسرائيل .

وبالنسبة للحدود ، فربما كان موقف العمل منها هو أهم ما يميز به عن موقف الليكود . ففي حين أن الأخير يرفض أي تقسيم لأراضي « يهودا والسامرة » مع

الفلسطينيين ، ويرفض أية سيادة أجنبية (غير إسرائيلية) عليها بل يعتبر الحكم الذاتي للسكان الفلسطينيين (دون الأرض) هو أقصى ما يمكنه الموافقة عليه كوضع نهائي لهم ؛ فإن حزب العمل ظل منذ أعقاب حرب ١٩٦٧ يدعو إلى حل وسط إقليمي يسمح بتقسيم أراضي الضفة الغربية وقطاع غزة . أما عن موقع الحدود التي تفصل بين إسرائيل وبين الكيان الفلسطيني ، فقد احتفظ العمل بموقفه في هذا الشأن ليعرضه في مفاوضات الوضع النهائي . وتشير الدلائل إلى أن الكثافة السكانية واعتبارات الأمن الإسرائيلي هما العاملان الرئيسيان اللذان يحددان موقفه .

وأخيرا ، فإنه بالنسبة لعلاقات الضفة الغربية وقطاع غزة بجاراتها ، وخاصة إسرائيل والأردن ، فإن إعلان المبادئ وما أعقبه من اتفاقات تدل على أن حكومة العمل كانت تتصور أن تقام روابط وثيقة بين الكيان الفلسطيني وكل من جاراتها ، في مجالات كثيرة ، وبما يمكن أن يشكل « مثلثا ذهبيا » يصلح نواة لسوق مشتركة شرق أوسطية شبيهة بالجماعة الأوروبية ، ويسمح لإسرائيل ، في الوقت ذاته ، بالسيطرة على الضفة الغربية .

وكانت الآمال معقودة على اسحق رابين في تحقيق السلام الدائم المنشود بين إسرائيل والدول العربية بالرغم من هواجسه الأمنية وتردده ، فإن المكاسب التي حققتها إسرائيل من الخطوات الأولى على طريق السلام كانت تتجاوز أحلامها وتغري حكومة العمل على المضي في طريق السلام . إذ اعترفت بها معظم الدول وأقامت معها علاقات دبلوماسية ، ورفعت الدول العربية المقاطعة الاقتصادية غير المباشرة عنها ، وفتحت أبواب العواصم العربية لوفودها في المفاوضات المتعددة الأطراف بل وأقام عدد من الدول العربية تمثيلا دبلوماسيا معها (على مستويات مختلفة) وطبعت علاقاتها معها قبل تسوية النزاع بينها وبين الأطراف العربية المباشرة . ولكن رصاصات إيجال عامير التي أودت بحياة رابين ك يوم ٤ نوفمبر ١٩٩٥ كانت نذير أقويا من جانب قوى التطرف الإسرائيلية بأنها لن تقبل السلام الذي بدأه مع الفلسطينيين ، فهو - في نظرها - قد فرط في « أرض إسرائيل » .

كما تصاعدت المقاومة المسلحة من قبل منظمة حماس ، وقامت بعدة عمليات انتحارية غيرت مسار عملية السلام .

وكانت نتيجة كل ذلك أن تخبط شيمون بيريس في مواقفه محاولا أن يرتدى لباس

رابين- رجل الأمن- وشن غاراته على لبنان لخمسة عشر يوما متواصلة ، وارتكبت قواته مجزرة قانا ، وأوقف المفاوضات مع الفلسطينيين والسوريين وفرض حصارا كاملا على الشعب الفلسطيني لايزال يعاني منه حتى كتابة هذه السطور .

ويبدو أن الرأي العام الإسرائيلي قد أصيب هو الآخر بنوع من البلبلة . بعد أن ارتد بيريس إلى ما يشبه موقف الليكود . فكلاهما يرفع شعار أمن إسرائيل أولا ، وبنيامين نيتانياهو يحمل زعيم العمل مسئولية التقصير في الحفاظ على الأمن ويتهمة بأن السلام الذي يعقده مع الفلسطينيين يعرض الدولة اليهودية للخطر . وانقسم الناجبون الذين سبق أن أسقطوا الليكود منذ أربع سنوات وفوضوا حكومة العمل في تنفيذ برنامجها للسلام بين يمين العمل ويمين الليكود . وكانت النتيجة تصويت ما يقرب من نصف عدد الناجبين لكل من العمل والليكود بفارق يقل عن ١٪ من مجموع الأصوات لصالح نيتانياهو ، فانتخب رئيسا للوزراء . وكانت المرة الأولى الذي ينتخب رئيس وزراء إسرائيل فيها عن طريق الاقتراع المباشر (بعد تعديل نظام الانتخاب) ، الأمر الذي كان له تأثيره على الطريقة التي يدير بها شئون الحكم .

ولاشك في أن بنيامين نيتانياهو قد أحسن استغلال الأوضاع الأمنية المضطربة التي سادت فترة حكومة العمل بطرح شعاره عن « أمن إسرائيل » ، وتحميله تلك الحكومة مسئولية التدهور .

فقد شهدت تلك الفترة تصاعد العمليات المسلحة والاشتباكات الدامية التي وقع ضحيتها عدد كبير من الإسرائيليين والفلسطينيين ، وأخذت الاعتداءات أبعادا خطيرة غير مسبوقة ، وتصاعدت المقاومة الفلسطينية المسلحة ، وتزايدت تحرشات المستوطنين الإسرائيليين بالفلسطينيين واعتداءاتهم عليهم . ولم تمض سوى شهور قليلة على توقيع إعلان المبادئ الفلسطينية الإسرائيلية ، حتى ارتكب باروخ جولد شتاين مجزرة الخليل التي راح ضحيتها ٢٩ فلسطينيا أثناء صلاتهم في الحرم الإبراهيمي في فبراير ١٩٩٤ ، وقامت أجهزة المخابرات الإسرائيلية بتدبير اغتيال فتحي الشقاقي زعيم الجهاد ويحي أبو عياش من رجالات حماس ، وانتقلت حماس بعملياتها الانتحارية في القدس وتل أبيب وعسقلان ، التي روتت الإسرائيليين وأثارت مخاوفهم وأفقدت شيمون بيريس التفوق الكبير الذي أظهرته استطلاعات الرأي على نيتانياهو في أعقاب مصرع اسحق رابين .

ومع ذلك ، فإن من المشكوك فيه أن يتمكن نيتانياهو من تحقيق الأمن إذا ما ظل متمسكا بسياسته المعلنة ، والتي نستعرضها فيما يلي .

الفصل التاسع

نيتانياهو وإسرائيل الكبرى

انتخابات مايو ١٩٩٦ :

أجريت انتخابات ٢٩ مايو ١٩٩٦ فى ظل نظام جديد يجرى انتخاب رئيس الوزراء الإسرائيلى بمقتضاه بالاقتراع المباشر للناخبين .
وحصل نيتانياهو على ٥٠٤٪ من مجموع الأصوات ، فى حين حصل شيمون بيريس على ٤٩٥٪ .

أما حزب العمل ، فقد حصل على ٣٤ مقعدا فى الكنيست بخسارة عشرة مقاعد عن الانتخابات السابقة عام ١٩٩٢ .

وأما الليكود ، فقد حصل على ٣٢ مقعدا وكان يشغل نفس العدد فى الكنيست السابق .

وشكل نيتانياهو حكومته الائتلافية من أحزاب الليكود ، وشاس ، والمفدال ، ويسرائيل بعلياه ، ، وتسوميت ، وغيشر ، والطريق الثالث .

وقد أظهرت نتائج الانتخابات تفوق أحزاب اليمين والأحزاب الدينية ، وخسارة العمل والأحزاب اليسارية . ويرجع المحللون هزيمة بيريس إلى انحسار التأييد لاتفاقات أوسلو فى أعقاب العمليات الانتحارية التى قامت بها « حماس » فى شهرى فبراير ومارس السابقين ، والأخطاء التى ارتكبها بيريس فى الحملة الانتخابية (على عكس نيتانياهو الذى رفع شعار أمن إسرائيل ، وأخاف الناخبين من السياسة السلامية لحزب العمل) ، وتحالفه مع ياسر عرفات وتنازلاته الخطيرة إلى الفلسطينيين وخاصة بالنسبة لمستقبل القدس . كما يرجعونها إلى اتجاهات

المجموعات الإثنية والدينية التي تغيرت وخاصة بسبب تصويت ثلثي المهاجرين الروس لصالح الليكود .

أما تفوق الأحزاب الدينية والأحزاب الصغيرة ، فيرجع إلى حد ما إلى انتخاب رئيس الوزراء بالاقتراع المباشر بما يسمح للناخب بالتصويت للمرشح الذي يفضلته دون أن يضع في اعتباره أثر تصويته على اختيار رئيس الوزراء . كما تفسره التحولات الاجتماعية والسياسية التي أدت إلى تعدد الاتجاهات وتباينها .

وقد تميزت الانتخابات بظاهرة استعانة الحزبين الكبارين - العمل والليكود - بالعناصر الصاعدة في المؤسسة العسكرية ، فوضعا في مقدمة قائمتهما أسماء جنرالات سابقين (مثل اسحق مورديخاي من الليكود ويهودا باراك من العمل) وتدل هذه الظاهرة على حرص كل من الحزبين على إظهار قدرته على الدفاع عن أمن إسرائيل .

نيتانياهو وحكومته :

ولد بنيامين نيتانياهو عام ١٩٤٩ ، وانضم إلى وحدة قتالية متميزة خلال الأعوام من ١٩٦٧ حتى ١٩٧٢ وبلغ رتبة نقيب (كابتن) ، ثم درس إدارة الأعمال في الولايات المتحدة . وعمل بعد ذلك مديرا لإحدى شركات الأثاث في القدس . وفي عام ١٩٨٠ ، قام بتأسيس معهد جوناثان لمكافحة الإرهاب ، واختار له اسم شقيقه الذي قتل في الغارة الإسرائيلية على عنتيبي عام ١٩٧٦ ، ثم عين قنصلا عاما في واشنطن بين عامي ١٩٨٢ و ١٩٨٤ ثم سفيرا لدى الأمم المتحدة حتى عام ١٩٨٨ . وفي عام ١٩٨٨ ، انتخب عضوا في الكنيست ، وعين نائبا لوزير الخارجية ، ومحدثا رسميا للوفد الإسرائيلي في مؤتمر مدريد ومفاوضات واشنطن . وتولى رئاسة الليكود بعد اعتقال اسحق شامير على أثر سقوط حكومته .

وكان نيتانياهو من كبار الدعاة إلى تعديل النظام الانتخابي بما يسمح بانتخاب رئيس الوزراء الإسرائيلي بالاقتراع المباشر . وقد كان الغرض من هذا التعديل هو تحرير رئيس الوزراء من ضغوط الأحزاب الصغيرة وإبترازاتها مقابل المشاركة في الإئتلافات الوزارية . ولكن نيتانياهو بدا منذ انتخابه متأثرا بالنظام الرئاسي الأمريكي (بالرغم من الاختلافات الأساسية بين النظامين حيث لا يزال الحصول على موافقة الكنيست على

الحكومة ضروريا ، كما أنه يجوز للكنيست أن يحجب عنها الثقة ويدعو لانتخابات جديدة). وقد ظهر اتجاه نيتانياهو واضحا من قيامه بإنشاء مجلس للأمن القومي وآخر للتخطيط الاقتصادي من غير الوزراء ، وتركيز عدد من الصلاحيات في يده شخصيا .

كما أنه اعتبر انتخاب الشعب مباشرة له من شأنه أن يعطيه صلاحيات واسعة سواء في تعيين الوزراء أو في رسم سياسته الخاصة ، بل إنه هدد بعزل الوزير الذى يعترض على هذه السياسة .

وكان واضحا من علاقاته بأعضاء حزبه ، والأحزاب الأخرى المشاركة في حكومته أنه لا يسمح بمنافسين له في الحكم . فقد ظل رافضا إسناد وزارة هامة لإرييل شارون ثم اضطر تحت تهديد دافيد ليفى بالاستقالة إلى إنشاء وزارة جديدة - تشمل اختصاصاتها عددا من اختصاصات الوزارات الأخرى - وإسنادها إليه . كما كاد ليفى يستقيل بسبب انفراد نيتانياهو بأنشطة دبلوماسية يفترض إشراكه فيها .

واتخذ لنفسه مجموعة من المستشارين من أمثال دورى جولد ، وأفيغدور ليبمان ودافيد بار إيلان ، أصبح يستعين بهم - أكثر من وزرائه - في تنفيذ سياسته .

وقد ضمت حكومة نيتانياهو شخصيات معروفة بكرهيتها الشديدة للعرب من أمثال أرييل شارون ، وروفايل إيتان ، وبنى بيجين .

إرييل شارون ، هو الذى رأيناه يتزعم حركة الاستيطان المكثف فى عهد الليكود السابق . وهو الذى خطط لغزو لبنان عام ١٩٨٢ وأدانت لجنة التحقيق لمسئوليته عن مذبحه صابرة وشاتيلا ، وقضت بإقالته من منصب وزير الدفاع . وهو صاحب خطة ضم الضفة الغربية لإسرائيل ، وهى الخطة التى عارض بها مشروع إيجال ألون . وشارون من مواليد موشاف كفار مالال بإسرائيل عام ١٩٢٨ ، وقد انضم إلى الهاجاناه عام ١٩٤٥ وأصيب فى معركة اللطرون فى حرب ١٩٤٨ ، وقاد وحدة كوماندوز لمقاتلة الفدائيين وشارك فى الاعتداء على غزة عام ١٩٥٥ ، وفى العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ، وفى حرب ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣ حيث قاد الوحدة التى أحدثت الثغرة ، وانضم إلى الليكود عام ١٩٧٢ ، وأسس حزب شلومزيون ولكنه فشل ولم يفز فى كنيست عام ١٩٧٧ ، إلا بمقعدين . وقد احتضن شارون جماعة جوش إيمونيم الأصولية المتطرفة . وظل غير واثق من استمرار السلام بين مصر وإسرائيل حتى فى ظل معاهدة السلام بين البلدين .

أما روفائيل إيتان ، فيبدي الاحتقار للعرب ويراهم مثل الصراصير التي إذا وضعت في زجاجة أكلت بعضها البعض ، وهو المسئول الأول عن مذبحه صابرة وشاتيل . وتتسم شخصيته بالصلف والغطرسه . وقد اشترك في جميع حروب إسرائيل ، ويتفاخر بعدد قتلاه من المصريين ، وقام بزيارة لمصر ولكنه وجدها بلدا ينقصها النظام والنظافة . وهو من مواليد موشاف تل أداشيم بإسرائيل عام ١٩٢٩ ودرس في جامعة تل أبيب وكلية الدفاع . وأسس حزب تسوميت اليميني المتطرف وتحالف مع حزب تحيا ولكنه فض التحالف وحصل في انتخابات الكنيست الثاني عشر على مقعدين وعين وزيرا للزراعة عام ١٩٩٠ ولكنه استقال في العام التالي ، وفي الكنيست الثالث عشر حصل على ٨ مقاعد ، ودخل الانتخابات الأخيرة على قائمة الليكود .

وأما عن الأحزاب الدينية التي أشركها نيتانياهو في حكومته ، فإن أهمها هو الحزب القومي الديني الذي دأب على الائتلاف مع حكومات العمل ثم انحرف إلى اليمين وأصبح متحالفا مع الليكود ، وحزب شاس الذي اتسمت مواقفه السابقة ببعض الاعتدال ، وسبق أن أيد برنامج حزب العمل ومبدأ الأرض مقابل السلام . ومن الأحزاب المتطرفة تسوميت الذي يمثل أقصى اليمين المتطرف ، وحزب الطريق الثالث الذي يطالب بعدم الانسحاب من الجولان والاستيطان الشامل للضفة الغربية وفرض سيادة إسرائيل على المناطق الحيوية . وتتفق جميع الأحزاب على بقاء القدس موحدة تحت السيادة الإسرائيلية .

والخلاصة هي أن التركيبة الوزارية لحكومة بنيامين نيتانياهو تمثل اتجاها يمينيا متشددا تتفاعل فيه المواقف السياسية والدينية من القضايا الداخلية الإسرائيلية ومن قضية السلام مع العرب ، وتتفق فيما يتعلق بالقضية الأخيرة على رفض إقامة الدولة الفلسطينية واعتبار الحكم الذاتي هو نهاية المطاف مع الفلسطينيين وعدم التنازل عن أى جزء مما تعتبره أرض إسرائيل ، ومن المتوقع أن تمارس الأحزاب الدينية فيها الضغوط من أجل تحقيق عدد من المكاسب الدينية (مثل الاحترام الكامل لحرمة السبت - وصلاة اليهود في المسجد الأقصى . . إلخ) أما نيتانياهو ، فإن أهم ما سوف يركز عليه هو قضية أمن إسرائيل ، وسوف يسعى لتعديل اتفاقات أوسلو مستخدما ذريعة الأمن .

برنامج الليكود الانتخابى :

- تقدم الليكود فى الانتخابات الأخيرة ، ببرنامج يتضمن الأسس التالية (*) :
- إن حق الشعب اليهودى فى أرض إسرائيل حق أبدي غير قابل للنزاع ، ويتضمن الحق فى الأمن والسلام .
- سوف تحترم حكومة إسرائيل الاتفاقات الدولية ، وستواصل العمل الدبلوماسى لتحقيق السلام العادل والدائم فى الشرق الأوسط .
- ستعترف بالحقائق المترتبة على الاتفاقات ، وستعمل على تقليل المخاطر الناجمة عنها على مستقبل وأمن إسرائيل .
- ستجرى مفاوضات مع السلطة الفلسطينية لتحقيق ترتيبات دائمة بشرط أن يحترم الفلسطينيون بشكل كامل كل التزاماتهم .
- ستقوم بتمكين الفلسطينيين من إدارة حياتهم بحرية فى إطار الحكم الذاتى ، على أن تبقى شئون الخارجية والدفاع والشئون التى تتطلب التنسيق من مسئوليات إسرائيل . وستعارض إقامة أية دولة فلسطينية مستقلة .
- ستعمل على إيجاد موارد للفلسطينيين فى مناطق الحكم الذاتى ، لخفض عدد العمال الفلسطينيين فى السوق الإسرائيلية ، وتشجع سياسة اقتصادية تقلل من اعتماد هذه السوق على العمال الأجانب .
- سوف تكون لجيش الدفاع وقوات الأمن الإسرائيلية حرية الحركة كاملة فى كل مكان كلما تطلب الأمر لمقاومة الإرهاب . وستبقى المناطق الأمنية الحيوية للدفاع عن إسرائيل والمستوطنات تحت السيادة الإسرائيلية الكاملة .
- ستحتفظ إسرائيل بمصادر مياهها الحيوية فى يهودا والسامرة .
- إن القدس الموحدة ، وغير المقسمة هى عاصمة إسرائيل ، وسوف يتم حظر النشاطات التى تقوض وضعها ، ولذا فإنه سيتم إغلاق مؤسسات منظمة التحرير والسلطة الفلسطينية وبيت الشرق .

(*) مختارات إسرائيلية - عدد ١٩ يوليو ١٩٩٦ (مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية - مؤسسة الأهرام) .

- سيمثل نهر الأردن وبحيرة طبرية الحدود الشرقية لدولة إسرائيل ، وسوف تكون هي الحدود الدائمة بينها وبين الأردن التي تصبح شريكا في الترتيبات النهائية مع الفلسطينيين في المناطق التي يتفق عليها في المفاوضات .

- إن الكنيسة سبق أن أصدر قانونا لتطبيق القوانين والأحكام القضائية والإدارية الإسرائيلية على مرتفعات الجولان ، بناء على اقتراح الليكود ، وبذلك فرضت السيادة الإسرائيلية عليها .

ويتفق هذا البرنامج إلى حد كبير مع الأفكار التي سبق أن سردها نيتانياهو تفصيلا في كتابين سبق أن أصدرهما ، أحدهما بعنوان « إسرائيل - مكان بين الأمم » والثاني عن الإرهاب .

السير في طريق مسدود :

منذ تولى بنيامين نيتانياهو الحكم ، تميزت تصريحاته بالغموض والتناقض . ففي حين أعلن تمسكه ببرنامج ولاءاته للدولة الفلسطينية وتقسيم القدس والانسحاب من الجولان ، أكد التزامه بالاتفاقات المعقودة مع الفلسطينيين وعزمه على مواصلة التفاوض معهم ومع السوريين .

وكانت زيارة نيتانياهو الأولى للولايات المتحدة يوم ١٠ يوليو ١٩٩٦ ، ووسط تصفيق حاد من رجال الكونجرس ، وقف رئيس وزراء إسرائيل الجديد ، يلقي خطابه الذي يحدد فيه مفاهيمه للسلام مع العرب ، والذي يرى أن يقوم على أسس ثلاثة : الأمن - والمبادلة - والديموقراطية وحقوق الإنسان .

فأما الأمن ، فإنه يتطلب وقف العمليات الإرهابية ، إذ لا يمكن للأطراف - في رأيه - الجمع بينها وبين الدبلوماسية .

وأما المبادلة ، فهي - في تعريفه - الالتزام بحل المنازعات بالوسائل السلمية .

وأكد نيتانياهو أن سياسة حكومته تركز على مبدأ احترام الاتفاقات التي عقدتها إسرائيل وهي مستعدة للبدء في مفاوضات الوضع النهائي مع الفلسطينيين وإنما بشرط أن يقوموا بتنفيذ التزاماتهم ، كما أنها على استعداد للدخول في مفاوضات مع سوريا ولبنان وإنما بدون شروط مسبقة ، بل وتوسيع حلقة السلام لتشمل كل دول العالم العربي والشرق الأوسط .

وقد ازداد تصفيق أعضاء الكونجرس عندما أكد نيتانياهو أن القدس ستظل موحدة تحت سيادة إسرائيل التي لن تسمح بإقامة حائط برلين آخر بداخلها . فقد لاقت عبارته عن القدس ترحيب الكونجرس الأمريكي الذي سبق أن طالب بنقل السفارة الأمريكية إليها - اعترافا بأنها عاصمة إسرائيل - وأصبح الجمهوريون والديموقراطيون يتسابقون على كسب ود الزعيم الإسرائيلي ولم يتبق على موعد الانتخابات الأمريكية سوى أشهر قليلة .

وفى مؤتمره الصحفي ، حرص نيتانياهو على دمج الأنظمة العربية بالديكتاتورية ، على عكس إسرائيل الديموقراطية ، والدعوة للتعاون لمحاربة الإرهاب ، وحاول إظهار نواياها السلمية وتقديمها إلى حدٍّ استغنائها في وقت قريب عن المساعدات الأمريكية ولاشك في أنه - وهو الذي أقام فترة طويلة من حياته في الولايات المتحدة - قد أجاد الحديث إلى الأمريكيين باللغة التي تروق لهم وتحسن صورة إسرائيل لديهم .

وعندما واجه رجال الإعلام في مصر ، خلال زيارته إليها ، تبدلت لهجة نيتانياهو ، فأعلن احترامه للدول العربية ، وكرر التزامه بالاتفاقات المعقودة ، وأكد العزم على مواصلة عملية السلام ؛ ولكنه راوغ ولم يقيد نفسه بالتزام محدد .

وقد كان على نيتانياهو مواجهة حقائق الموقف التي صنعتها حكومة العمل . فقد حلّ موعد البدء في مفاوضات الوضع النهائي ، كما أحال إليه شيمون بيريس مشكلة إعادة انتشار القوات الإسرائيلية في الخليل التي فات موعدها ، ثم كان عليه أن يتخذ قرارا بشأن استئناف المفاوضات مع سوريا التي كان بيريس قد أوقفها - والمفترض أن ذلك كان بصفة مؤقتة - عقب عمليات حماس الانتحارية .

أما عن المفاوضات مع الفلسطينيين ، فقد تعلل نيتانياهو بأن على الفلسطينيين أن يوفوا أولا بالتزاماتهم . وادعى أن القرار الفلسطيني بتعديل الميثاق الوطني لا يتفق - في الحقيقة - مع التزامهم في اتفاقية أوسلو ، ثم ادعى أنهم يمارسون نشاطا في مدينة القدس - وهي عاصمة إسرائيل - يخالف تلك الاتفاقية ، وطالبهم بإغلاق عدد من المؤسسات والامتناع عن أية ممارسات للسلطة الفلسطينية أو لمنظمة التحرير فيها ، وتمسك بعدم إجراء اتصالات دبلوماسية في بيت الشرق وطالب الوزراء الأوربيين وغيرهم بمراعاة ذلك مهددا بإغلاقه (رغم أن شيمون بيريس كان قد تعهد في كتاب

وجهه إلى وزير خارجية النرويج بالمحافظة على الوضع الراهن والمؤسسات الفلسطينية في القدس). ولم تبدأ المفاوضات المشار إليها حتى كتابة هذه السطور، ولو بدأت فسوف تكون مفاوضات شاقة ومتعثرة.

ومن ناحية أخرى، قام نيتانياهو بإلغاء قرار الحكومة السابقة بتجميد عملية الاستيطان، وقرر البدء ببناء ألفى وحدة سكنية مدعياً أن من حق إسرائيل توسيع المستوطنات القائمة لمواجهة الزيادة السكانية الطبيعية فيها وأن الولايات المتحدة أبدت تفهما لهذا الاعتبار كما أن الحكومة العمالية لم تتوقف عن الاستيطان وليس من المعقول ألا تواصل حكومة الليكود هذا النشاط.

وأما عن القدس، فقد بدأ في تنفيذ خطة استكمال تهويدها بصفة نهائية بهدم المباني الفلسطينية وإقامة المباني اليهودية، ومحاولة تفريغ المدينة من سكانها الفلسطينيين بكافة الحيل القانونية وغير القانونية.

وبالرغم من تأكيدات نيتانياهو عن التزامه بالاتفاقات المعقودة مع الفلسطينيين، فقد طالب الفلسطينيون بالدخول في مفاوضات للاتفاق على ترتيبات جديدة بشأن مدينة الخليل، وصرح بأن الترتيبات التي تضمنتها اتفاقية أوسلو غير مقبولة ويهدد تطبيقها باضطراب الأمن وإشاعة الفوضى وتعريض المستوطنين اليهود فيها للخطر.

واتبع رئيس الوزراء الإسرائيلي طريق المناورة تجاه سوريا، فلم يكف عن دعوتها إلى مفاوضات بغير شروط مسبقة (في الوقت الذي يكرر فيه رفضه للانسحاب من الجولان)، ثم اقترح الاتفاق على انسحاب القوات الإسرائيلية من لبنان مقابل إنهاء عمليات المقاومة، وكان واضحاً من اقتراحه أنه يسعى لفصل المسار اللبناني عن المسار السوري بهدف إحداث الوقعة بين البلدين وتعريض لبنان لخطر حرب أهلية جديدة، فضلاً عن عزل سوريا. ولذا كان طبعياً أن يرفض كلا البلدين هذا الاقتراح.

والواقع أن نيتانياهو قد اختار لنفسه طريقاً مسدوداً، فهو يعتقد خطأ أن العرب سوف يخضعون في نهاية الأمر ويقبلون ما يعرضه عليهم من السلام مقابل السلام. فلا دولة للفلسطينيين وإنما حكم ذاتي تحت سيطرة إسرائيل الأمنية، وضم نهائي للقدس والضفة الغربية والجولان، ومواصلة الاستيطان في كل مكان.

وتبدو الولايات المتحدة عاجزة عن ممارسة أية ضغوط على إسرائيل في هذه الأشهر القليلة السابقة على الانتخابات الأمريكية، بل إنها أثبتت عجزها عن الرد على

تحديات نيتانياهو الذى أعلن أنه سيواصل تنفيذ سياسته حتى لو أدى ذلك إلى توتر العلاقات معها .

أما العرب ، فقد اجتمع رؤساؤهم فى أول مؤتمر للقمّة يعقد منذ حرب الخليج ، وأبدوا رغبتهم فى السلام وتمسكهم بأسس مؤتمر مدريد ، ملمحين بأن نكوص إسرائيل عن التزاماتها سوف يؤدى إلى تغيير مواقفهم تجاهها . ويبقى السؤال عما إذا كان نيتانياهو سوف يعيد النظر فى مواقفه ويعمل على صيانة المكاسب الضخمة التى حققتها العملية السلمية لإسرائيل ، ويدرك ما تحمله سياسته من أخطار على سلام المنطقة بأسرها ، ويضع فى حسبانته أن نصف الشعب الإسرائيلى لا يزال يؤيد السير فى طريق السلام ، أم أنه سيطرح جانبا كل هذه الاعتبارات ، تمسكا بأيدىولوجية عتيقة لم تعد تتفق مع معطيات العصر ، وجريا وراء وهم إقامة إسرائيل الكبرى .

أيدىولوجية نيتانياهو :

يعرض نيتانياهو فى كتابه « مكان بين الأمم » (*) نظرية غريبة فى تناوله للقضية الفلسطينية ، تتفق مع أيدىولوجية الليكود والصهيونية التصحيحية .

فهو يرجع الطفرة فى زيادة عدد السكان العرب لفلسطين إلى موجات الهجرة اليهودية بدءا من الموجة الأولى عام ١٨٨٠ ، حيث بدأ اليهود فى إقامة المدن وإنشاء الطرق والمزارع والمستشفيات والمدارس والمصانع ، ووفد العرب إلى المناطق اليهودية سعيا وراء الرزق والأجور المرتفعة إلى حد أن زاد معدل الهجرة العربية إليها عن الهجرة اليهودية (كما لاحظته الرئيس الأمريكى روزفلت عام ١٩٣٩) ، وارتفع بنسبة ٢٩٠٪ فى الفترة من بدء الانتداب البريطانى حتى قرار التقسيم عام ١٩٤٧ .

وهو يرد على الإدعاء القائل بأن اليهود استولوا على فلسطين من الشعب العربى الذى كان يعيش فيها منذ مئات السنين ، والذى يعدّ مالكها الشرعى ، مستشهدا بكتابات عدد من الرحالة والكتاب والدبلوماسيين الذين زاروا فلسطين فى القرون السابقة ووصفوا قلة سكانها وتأخرها . كما أنه يرد على القائلين بأن شعب فلسطين اكتسب هوية وطنية مستقلة وله الحق فى تقريره مصيره ، فيذكر أنه منذ نهاية الدولة

(*) Benjamin Netanyahu : A Place Among The Nations.

اليهودية القديمة وحتى بداية الحكم البريطاني لم تكن المنطقة التي أطلق عليها اسم فلسطين بلدا له حدود وإنما كانت - على حد قول برتراند رسل - تقسيما إداريا ، وأن العرب - على حد كاتب آخر - لا يمكن اعتبارهم سكانا بل كانوا رحّلا يتنقلون من مكان لآخر . ولذا ، قول فإن قادة العالم في فرساي (عقب الحرب العالمية الأولى) عندما وازنوا بين المطالب العربية واليهودية في فلسطين ، فإنهم - وعن حق - لم يبدوا اهتماما بالمطالب العربية في فلسطين . فقد حصل العرب أكثر من أية شعوب أخرى على المكاسب المتمثلة في استقلال العراق والعربية (السعودية) وسوريا وشرق الأردن ، رغم أن معظمهم - كما ذكر لويد جورج - قد حارب من أجل الحكم التركي .

ويمضي نيتانياهو في رواية تاريخ فلسطين تحت الانتداب - من وجهة نظره - ليثبت خيانة بريطانيا لليهود وممالأتها للعرب ، واقتطاعها شرق الأردن من الوطن القومي اليهودي والقيود التي وضعتها على الهجرة اليهودية في الوقت الذي كانت النازية ماضية في تنفيذ خططها للقضاء على اليهود ؛ وذلك على نحو ما يتردد في جميع الأدبيات الصهيونية . ثم يستعرض - بطريقته - التاريخ المعاصر إلى أن يصل إلى حرب الخليج . وفي محاولة للرد على أن القضية الفلسطينية هي لب الصراع في الشرق الأوسط ، يتحدث نيتانياهو عن المنازعات المتعددة وأعمال العنف فيما بين العرب لكي ينتهي إلى إرجاع هذه الفكرة السائدة إلى ثلاثة عوامل هي : أزمة الشرعية (بالنسبة لنظم الحكم) - والتطلع إلى تحقيق الوحدة العربية (الإسلامية) - والمرارة ضد الغرب (الذي يعتبره العرب مستولا عن إنشاء إسرائيل ويرى في الصهيونية تعبيرا عن الحضارة الغربية) .

ويفرد نيتانياهو فصلا في كتابه لكي يثبت فيه عدم صحة الدعايات العربية القائلة بأن القضية الفلسطينية كانت سبب جميع الحروب بين العرب وإسرائيل ، لا أنها كانت نتاج هذه الحروب ، ذاكرا أن النزاع العربي الإسرائيلي لا يرجع إلى انتقال الأراضي (المحتلة) إلى أيدي إسرائيل عام ١٩٦٧ ، ولا إلى مشكلة اللاجئين التي نتجت عن الهجوم العربي على إسرائيل عام ١٩٤٨ ، وإنما يرجع - في الحقيقة - إلى إصرار العرب على رفض الاعتراف بإسرائيل داخل أية حدود . ويمضي نيتانياهو مناقشا المطالبة للشعب الفلسطيني بحق تقرير المصير ، رافضا هذا المطلب فليست كل أقلية - في رأيه - يمكنها ممارسة هذا الحق ، ويكفي أن هناك دولة فلسطينية في الأردن ، بل إن دولة فلسطينية (في الضفة الغربية وقطاع غزة) سوف تكون قبلة زمنية تنسف

السلام فى بلاد كثيرة . ومن جهة أخرى ، فإنه يحاول إسباغ الشرعية على الاستيطان اليهودى فى الضفة الغربية وقطاع غزة على أساس ما يعتبره حقا يهوديا معترفا به من الجماعة الدولية منذ معاهدة فرساي .

وربما كان ما تقدم كافيا لإلقاء الضوء على الأفكار الرئيسية لنيتانياهو ، والتي تعد امتداداً لأيدولوجية الصهيونية التصحيحية وعلينا أن نتعرف على مفاهيم رئيس الوزراء الإسرائيلى - التى عبر عنها فى كتابه - بشأن السلام فى الشرق الأوسط .

يرى نيتانياهو أن هناك نوعين من السلام : الأول هو المعروف فى الغرب والذى يقوم على الحدود المفتوحة والتجارة والسياحة والتبادل والتعاون فى المجالات المختلفة ، وهو ما يمكن أن يسمى سلام الديموقراطيات - والثانى هو سلام الردع الذى يجب أن يسود الشرق الأوسط حيث لا توجد دولة ديموقراطية سوى إسرائيل فالسلام فى الشرق الأوسط لا يتحقق إلا من خلال القوة ، وسلام إسرائيل مرتبط بأمنها وإذا ما تحقق العرب من أن إسرائيل موجودة لتبقى ، فعندئذ قد تتغير مواقفهم من حق إسرائيل فى الوجود ، ولن يشنوا هجوما عليها إذا لم يكن لديهم الأمل فى النجاح .

وحتى يمكن لإسرائيل أن تحافظ على السلام على جبهتها الشرقية ، فإن قدرتها على الردع تتوقف على ثلاثة عوامل : قدرتها العسكرية - وفترة إنذار كافية لتعبئة قواتها - وحد أدنى للمجال الذى تنشر فيه هذه القوات .

وبناء على ذلك ، فإن من الضروري أن تحتفظ إسرائيل بالضفة الغربية كاملة . ويحاول نيتانياهو جاهدا إظهار ما فى إقامة دولة فلسطينية فى الضفة الغربية من أخطار محققة لإسرائيل ، وتفنيد المقترحات القائلة بنزع سلاح هذه الدولة ، أو السيطرة العسكرية وليست السيادة عليها ، وينتهى إلى رفض إقامة الدولة الفلسطينية فى الضفة سواء لاعتبارات الدفاع أو لضرورة سيطرة إسرائيل على مصادر المياه فيها حيث تحصل منها على ٤٠٪ من احتياجاتها من المياه العذبة .

وبالنسبة لمرتفعات الجولان التى تسيطر على مصادر مياه نهر الأردن وبحر الجليل ، التى تزود هى الأخرى إسرائيل بنسبة ٤٠٪ من إيراداتها المائية ، فإن وضعها هذا بالإضافة لموقعها الاستراتيجى يحتم على إسرائيل - فى رأيه - الاحتفاظ بها (والواقع أن اللىكود يعتبرها جزءا من أرض إسرائيل التاريخية) .

وردا على ما يثار بشأن مشكلة تزايد السكان الفلسطينيين - فى الضفة الغربية وقطاع غزة - فإن نيتانيا هو يخصص فصلا كاملا لتبديد المخاوف من احتمال أن يصبح الفلسطينيون هم الغالبية ، وذلك بمحاولته إثبات أن توقعات علماء السكان لم تتحقق وأن ثمة إمكانية لمزيد من الهجرة من دول كثيرة بحيث تستوعب إسرائيل ثمانية ملايين آخرين من اليهود .

وأخيرا - فإن نيتانيا هو ينتهى فى كتابه الضخم (٦٧٤ صفحة) - والذى أجهد فيه نفسه لإقناع القارئ الغربى (وخاصة الأمريكى) بأفكاره - إلى أن السلام الدائم فى الشرق الأوسط لا يتحقق إلا على النحو التالى :

أولا - تخلق الدول العربية نهائيا عن الرغبة فى تدمير إسرائيل وقيامها بعقد معاهدات سلام معها ، وإنهاء مقاطعتها اقتصاديا ، والتوقف عن التسليح المدمر ، والتعاون بين العرب والإسرائيليين سواء فى مجالات تنمية الموارد المائية أو التجارة والسياحة وغيرها من مجالات التعاون الإقليمى .

ثانيا - ممارسة الغرب الضغوط على العالم العربى من أجل تحقيق الديمقراطية .

ثالثا - أن تكون لإسرائيل حدود آمنة ، بحيث تمتد حدودها إلى نهر الأردن .

رابعا - تظل القدس موحدة تحت السيادة الإسرائيلية ، وتبقى عاصمة لإسرائيل (وفى هذا الصدد يذكر نيتانيا هو بأنه حان الوقت لكى يقدم العرب التنازلات الإقليمية بعد أن قدمت إسرائيل وحدها التنازلات : عن مصادر المياه فى لبنان - ثم عن شرق الأردن - وأخيرا بانسحابها من سيناء التى تشكل ٩٠٪ من الأراضى المحتلة عام ١٩٦٧) .

خامسا - نظراً لأن قطاع غزة لا يمثل مخاطرة كبيرة لإسرائيل ، فإنه يمكن منح سكانه أكبر قسط ممكن من الحكم الذاتى مع احتفاظ إسرائيل بسلطات الأمن والسياسة الخارجية ، وإنما بعد إجراء تعديل طفيف لحدوده من أجل المستوطنات الإسرائيلية ، وعلى أن يبقى القطاع تحت السيادة الإسرائيلية ، وأن يسمح للإسرائيليين بالعيش فيه بحرية وأمان .

سادسا - بالنسبة ليهودا والسامرة (الضفة الغربية) ، تحتفظ إسرائيل بالسلطات السيادية بما فى ذلك الدفاع والشئون الخارجية ورقابة العملة والتجارة الخارجية ،

ويتولى السكان العرب إدارة شئون حياتهم اليومية على طريقة تقسيم المسؤوليات بين حكومة وطنية وسلطة محلية دون تدخل كبير من جانب الحكومة الإسرائيلية المركزية. كما تكون للإسرائيليين حرية العيش فى هذه المناطق ، ولإسرائيل أقصى درجات الأمن ضد الهجمات الإرهابية بحيث تكون للقوات الإسرائيلية الحرية الكاملة للحركة فيها .

وفى هذا الشأن ، فإنه يتصور إقامة أربع مقاطعات سكانية counties فى نابلس وجنين ورام الله والخليل تتمتع بالإدارة الذاتية ، فهى تضم معظم السكان العرب وتمثل ١/٣ أراضى الضفة . ولكن يجب أن تظل الأمور الحيوية مثل الأمن والمياه فى يد الحكومة المركزية .

سابعاً - أن المطالبة بأن يكون لعرب الضفة والقطاع حق تملك الأرض يتعارض مع حرية الحركة التى يجب أن تتمتع بها القوات الإسرائيلية للحفاظ على الأمن .

ثامناً - يطبق نظام الإدارة الذاتية خلال المرحلة الانتقالية ويصبح جزءاً من اتفاق الوضع النهائى الذى ينظم مسألة منح سكان المراكز السكانية المشار إليها الجنسية الإسرائيلية بحيث يجوز لهم طلب هذه الجنسية بعد عشرين عاماً .

تاسعاً - تحل مشكلة اللاجئين دولياً وعلى أساس توطينهم فى الدول العربية والدول الأخرى خلاف إسرائيل .

عاشراً - تحتفظ إسرائيل بمرتفعات الجولان لاعتبارات العمق الاستراتيجى والجغرافيا والمياه التى سبقت الإشارة إليها .

نيتانياهو ومحاربة الإرهاب :

يعتبر نيتانياهو نفسه خبيراً فى مجال محاربة الإرهاب ، فقد أسس - كما أشرنا من قبل - معهد جوناثان المتخصص فى هذا المجال ، كما أصدر كتاباً ضمنه أفكاره للقضاء على الإرهاب الدولى .

ويرى نيتانياهو لكل من الولايات المتحدة وإسرائيل دوراً رئيسياً فى محاربة الإرهاب ، ويعطى كلتا الدولتين حق التدخل فى الدول المختلفة لتحقيق هذا الهدف . وينادى بقتل رؤوس الجماعات الإرهابية فى العالم وتصفيتهم جسدياً بدلاً من

وضعهم فى السجون ، ولا مجال - فى رأيه - للكلام عن الحريات الشخصية لهؤلاء الإرهابيين . فالإرهاب نوع مختلف عن الحرب العادية له تأثير الحرب الصغيرة .

ويتهم سوريا وليبيا والعراق وإيران بتبنى الإرهاب الدولى الذى أصبح جزءا أساسيا من السياسة فى الشرق الأوسط ، ويعتبر استخدام العرب لسلاح البترول فى حرب أكتوبر نوعا من الإرهاب ، ويشير إلى استخدام مصر للفدائيين ضد إسرائيل ، ومساعدتها حرب التحرير الجزائرية ، وتقديمها العون للمنظمات الفلسطينية ، باعتبارها جميعا من أشكال الإرهاب ، كما يتحدث عن إقامة منظمة التحرير شبه دولة لها فى لبنان . ويسخر من مصطلحات العروبة والقومية العربية ، كما يشن حربا ضد الفكر الإسلامى والقومية الإسلامية ، ويرى أن عداها للغرب لا يرجع إلى تأييده لإسرائيل وإنما إلى طبيعة هذا الفكر . ويسرد نيتانياهو ما يعتبره خطة المراحل الفلسطينية للقضاء على إسرائيل ، والتى كانت تستهدف إعادتها إلى حدود ما قبل ٥ يونيو ١٩٦٧ ثم إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة ، ويذكر أن حكومة العمل وقعت فى أخطاء جسيمة وخاصة بسماحها للإرهاب باللعب بالمتفجرات ، أما إقامة دولة فلسطينية فمن شأنه إقامة إيران أخرى .

وأخيرا ، فإنه يحذر الولايات المتحدة والدول الغربية من المشاريع النووية العربية والإسلامية وخاصة المشروع الإيراني الذى يمكن إيران من تهديد العالم بأسره ، كما يؤدى حصول الدول العربية على السلاح النووى إلى صعود التطرف الإسلامى إلى الحكم . وأما الحلول التى يقدمها ، فهى فرض العقوبات الشديدة ضد الدول التى تقدم التقنية النووية والكيمياوية والبيولوجية إلى العرب ، وضد الدول المؤيدة للإرهاب وتجميد أرصدها والتعاون فى مجال المخابرات ، وتعديل القوانين الدولية ، والتعاون الدولى لمحاربة الإرهاب وإعداد قوات خاصة لهذا الغرض (*) .

الفصل العاشر

حصار التطرف الإسرائيلي

كاد القرن العشرون أن ينقضى ، وانتهى عصر الحرب الباردة وانهار الاتحاد السوفيتى ، وبدأت إرهابات نظام دولى جديد تسعى الدول لأن يسوده الوفاق وتختفى فيه الحروب وتتعاون من أجل إيجاد تسويات للمنازعات الإقليمية ، نظام تتضاءل فيه أهمية الأيديولوجيات وتذوب الخلافات فى محيط المصالح المتبادلة . ومع ذلك ، فلا يزال قادة إسرائيل الحاليون يكبلون أنفسهم بأيديولوجية بلغت من العمر مائة عام ، ويحرصون على إعلان وفائهم لها .

كان أمل تيودور هيرتزل أن يجد لليهود قطعة من الأرض ، فى أى مكان من العالم ، يقيم عليها دولة لهم . ولم يكن يمانع فى أن تبنى هذه الدولة فى الأرجنتين أو أوغندا أو قبرص أو العريش .

وتحقق لليهود مالم تكن تصل إليه أحلامهم . أقاموا دولتهم فى فلسطين وهجروا إليها ما يزيد على ثلاثة ملايين من كافة أنحاء الأرض ، وزودوها بكل أسباب التقدم .

وقد فتحت إسرائيل أبوابها لكل من أراد الحياة فيها من يهود المهجر ، كما رفعت من كل دول العالم ، وآخرها الاتحاد السوفيتى السابق ، كل القيود التى كانت تحول دون هجرة من يشاء من يهودها إلى إسرائيل . وكانت الأفواج القادمة من دول الاتحاد السوفيتى والكتلة الاشتراكية السابقة آخر موجات الهجرة اليهودية إلى الدولة العبرية ، ولم يعد من المتوقع أن تعقبها موجات أخرى بعد أن أصبح اندماج اليهود فى مجتمعات جميع الدول من حقائق العالم المعاصر .

غير أن الأيديولوجية الصهيونية لاتزال هى المتحكمة فى سياسات قادة إسرائيل أيا

كانت انتماءاتهم الحزبية ، حرص اسحق رابين لدى التقدم إلى الكنيست بإعلان المبادئ الذي أبرمه مع ياسر عرفات على أن يؤكد انتصار الصهيونية ، كما يحرص بنيامين نتانياهو على أن يؤكد - في كتاباته - أن للصهيونية دورا هاما يجب عليها القيام به من أجل توطين ثمانية ملايين يهودي يتوقع قدومهم من كل دول العالم ، فعداء السامية - في ظنه - لن يختفى من العالم .

أما شيمون بيريس ، فقد ذهب إلى أن « الجيل الأخير كان جيل التطلعات ، أما الجيل الحالي فإن عليه أن يتولى التخطيط . كان للجيل السابق أحلامه ورؤاه ، وعلى الجيل الحالي أن يقوم بمهام محددة ، فالمطلوب هو الأفعال أما الأيديولوجيات فإنها تأتي بعد ذلك . وحدد بيريس ما تتطلبه إسرائيل بأنها العلم والتكنولوجيا والكفاءة - على الخطر الياباني - باعتبارها الحاجات الملحة للدولة العبرية . أما بالنسبة لمستقبل الشرق الأوسط ومكان إسرائيل فيه ، فقد سرد أفكاره عنها في كتابه « الشرق الأوسط الجديد » ، وهي أفكار تتلخص في إقامة نظام جديد في المنطقة يقوم على أساس التعاون الإقليمي في كافة المجالات ويسمح باندماج إسرائيل فيه . وقد قامت عملية السلام التي بدأت في مؤتمر مدريد على أساس هذا المفهوم ، وقطعت المفاوضات المتعددة الأطراف شوطا لا بأس به وإن كان باديا من مواقف إسرائيل أنها تستهدف من النظام الشرق أوسطي الجديد أن يكون إطارا لبسط سيادتها وسيطرتها على المنطقة . وحققت المفاوضات الثنائية بين إسرائيل والأطراف العربية نتائج إيجابية على المسارين الفلسطيني والأردني . وكان مأمولا أن تتوصل حكومة العمل إلى تسوية مع كل من سوريا ولبنان فيما لو فازت في انتخابات مايو ١٩٩٦ .

والواقع أن إسرائيل قد دخلت منذ عام ١٩٦٧ في مرحلة حاسمة من تاريخها ، فقد أحدثت انتصاراتها العسكرية غير المتوقعة تيارات متضاربة في محيطها السياسي على المستويين الشعبي والحكومي ، وتضاربت الاتجاهات بين التنازل عن الأراضي العربية المحتلة - أو على الأقل أجزاء منها - مقابل السلام الدائم مع العرب ، وبين الاستيلاء على هذه الأراضي . وفي حين تبنت حكومة العمل الاتجاه الأول ، لم تستطع حكومات الليكود أن تعدل عن مواقف الصهيونية التصحيحية إلا بصفة جزئية عندما أعادت سيناء إلى مصر ، وظلت متمسكة بمبادئها عن عدم التنازل عن أرض إسرائيل التوراتية التي تشمل الضفة الغربية والقدس وقطاع غزة ومرتفعات الجولان ،

وقد استمر موقف الليكود ثابتاً لا يتغير طوال مفاوضات واشنجتون إلى أن هزمها ائتلاف العمل بعد أن ثبت فشل سياساتها التي أدت إلى تدهور الاقتصاد الإسرائيلي وتوتر العلاقات مع الولايات المتحدة .

ولم تمض سوى أربع سنوات حتى غير الرأي العام الإسرائيلي من اتجاهاته وتسبب في إسقاط حكومة العمل . وقد يبدو هذا التغير السريع غريباً وخاصة مع المكاسب الهائلة التي حققتها عملية السلام لإسرائيل منذ أن بدأت حكومة رابين وييريس السير في طريقها . فقد خرجت إسرائيل من عزلتها الدولية والإقليمية ، إذ اعترفت بها كل الدول تقريباً وأقامت معها علاقات دبلوماسية وفتحت لها أسواقها ، وفتحت الدول العربية أبوابها أمام مكاتبها وفودها ورفعت عنها المقاطعة الاقتصادية غير المباشرة وأبدت استعدادها للتعاون معها على المستوى الإقليمي في المجالات المختلفة .

ويحق لنا أن نتساءل عما إذا كان بنيامين نتانياهو - والقطاع المؤيد لسياسته من الشعب الإسرائيلي - يتصور أنه من الممكن المحافظة على هذه المكاسب مع ضم الأراضي الفلسطينية والسورية وربما اللبنانية أيضاً ، أم أن رئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد سوف يضحى بما حققته عملية السلام من أجل أيديولوجية وضع أسسها فلاديمير جابوتنسكى ، أم أنه سيجد نفسه في نهاية الأمر مضطراً لقبول الحقائق القائمة على أرض الواقع في الأراضي الفلسطينية ، وعلى الساحة السياسية الإقليمية والدولية .

الواقع أن الأوضاع التي تسود المجتمع الإسرائيلي أصبحت بالغة التعقيد .

فقد تمكنت حكومات الليكود السابقة من إعطاء دفعة قوية لليمين المتطرف ، وتحالفت مع القوى الأصولية الدينية والسياسية ، وقامت بزرع المستوطنات اليهودية في كافة أنحاء الضفة الغربية والقدس وقطاع غزة وهضبة الجولان ، وأصبحت الحركات المتطرفة من أمثال جوش إيمونيم وكاخ وتسوميت وأمناء الهيكل قوى مؤثرة تقاوم التنازل عن أى جزء من الأراضي العربية المحتلة .

ولانتزال قطاعات من الشعب الإسرائيلي متعلقة بالهدف المطلق للصهيونية سواء لأسباب سياسية أو لبواعث دينية ، فالهدف هو إقامة إسرائيل على أرضها التاريخية أو التوراتية وامتدادها لتشمل أرض فلسطين والجولان وأجزاء أخرى من سوريا ولبنان ، والوسيلة هي القوة المسلحة لفرض السلام الإسرائيلي على العرب .

ومن ناحية أخرى ، لا شك فى أن قطاعا كبيرا من الشعب الإسرائيلى متعلق بعملية السلام ومستعد لتقديم التنازلات اللازمة .

ولا يزال قادة إسرائيل عاجزين عن تطوير الصهيونية بما يتفق مع حقائق العصر . فلم يسع اسحق رابين حين خطا أولى خطواته على طريق السلام أن يسلم بحق الفلسطينيين فى إقامة دولتهم المستقلة فى الضفة والقطاع بل ظل متمسكا ببقاء المستوطنات اليهودية فيها ووضعها تحت حماية القوات الإسرائيلية ، ورغم تيقنه من أنها تمثل قبلة زمنية فقد تراءى له أنه يمكن الفصل بينها وبين الأراضى الفلسطينية بشبكة من الطرق الالتفافية وترتيبات أمنية معقدة .

وقد كان الظلم الفادح الذى أوقعته الصهيونية بالعرب ثقيلًا على ضمائر كثير من المفكرين من اليهود وغير اليهود على السواء .

ذكر ألبرت اينشتاين « إننى أفضل أن أرى اتفاقا معقولا مع العرب على أساس العيش معا فى سلام عن أن تقام دولة يهودية » .

وكتب ماكسيم رودونسون « يجب أن يقال إن الصهيونية أعادت تفسير الأمانى الدينية بطريقة غير مقبولة فى شكل قومية حديثة . وقد ارتكزت على رؤية مسيحية فى آخر الزمان عندما يحل الزمان الذهبى النهائى فى فلسطين فالصهيونية يمكن اعتبارها تحويلا إلى العلمانية للاتجاه الدينى مع جانب من القومية . . ولا يمكن للعرب أن يروا (فى اضطهاد الأوربيين لليهود) سببا كافيا لإقامة الدولة اليهودية على حسابهم » .

بل إن ناحوم جولدمان رئيس منظمة الصهيونية العالمية بدأ يراجع نفسه متسائلا ومتشككا « بأنه بعد خمسين عاما من النشاط الصهيونى أصبحت تساورنى الشكوك حول ما إذا كانت إقامة دولة إسرائيل كما هى اليوم هى الإنجاز الكامل للفكرة الصهيونية فقد فشلت إسرائيل - بوجه خاص - فى الاعتراف بخطورة وأهمية المشكلة العربية . . ولم تؤد الانتصارات الإسرائيلية حتى الآن إلى تقريب حل النزاع العربى الإسرائيلى ، فالانتصارات فى حد ذاتها لا يكون لها معنى إذا هى لم تؤد إلى الاستقرار والسلام » .

أما البروفسور تالمون ، فقد رأى عن حق « إن الاعتراف أو عدم الاعتراف بالعرب الفلسطينيين كجماعة لها حق تقرير المصير هو ، فى نظرى ونظر العالم ، المسألة

الرئيسية . فهو المحك الذى يحدد ما إذا كنا نريد التصالح أو التوسع ، ونريد احترام حقوق الآخرين أو إنكارها . هذا هو المعيار الذى يحدد الطابع الديموقراطى والصفات الأخلاقية لدولتنا » .

وقد كان عيزر وايزمان على حق عندما قال « أصبح من الواضح أنه يجب علينا أن نخضع لنوع من التحول النفسى قبل أن نستطيع الإيمان بالسلام والتحرك إلى الأمام . إننا نحن العسكريين قد أنشأنا جيلا كاملا من المقاتلين ، وعلى الأجيال القادمة أن تعلم شعب إسرائيل بطريقة ذكية وعقلانية أن يؤمن بضرورة اتفاقات السلام مع العرب » .

وفى الفصل الختامى لكتابه « إلى الأرض الموعودة » (*) ، والذى جعل له عنوانا « الصهيونية - نهاية أيديولوجية » ، توقع الحاخام دافيد جولدبرج أن تشهد نهاية القرن العشرين أجواء من الواقعية والقبول والاعتراف المتبادلين بين العرب واليهود بعد أن سلمت الدول العربية المجاورة لإسرائيل بحقيقة وجودها . ويصدد تقويمه للصهيونية ، ذكر أنها أشاعت عدة أساطير هى أنها أدعت إعطاء كل شئ لجميع اليهود على اختلاف نزعاتهم ، العلمانيين منهم والاشتراكيين والدينيين والمحافظين . وأنها بسبب مصطلحاتها شبه الدينية جمعت بين أنصار البروليتاريا الثورية ومن يريدون تمهيد الطريق لقدم المسيح ، كما أنها خلقت أسطورة العودة إلى وطن قومى قاحل وقليل السكان وحاولت تبرير هدفها بحق تاريخى يمكن اعتباره قد سقط بانقضائه ألفى عام وتسببت فى خلق مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ، ثم إنها أشاعت أسطورة عن تاريخ يهودى يعد سلسلة طويلة من الاضطهادات والغارات العدوانية ضد اليهود متجاهلة الفترات التى عاشوا خلالها فى انتعاش ورفاهية فى أسبانيا الإسلامية وغيرها . كما أنها فشلت فى اجتذاب أعداد كبيرة من يهود العالم الغربى ، وإن كانت قد نجحت فى أن توجد ملجأ لليهود الذين أنقذوا من أيدي النازية .

والواقع أن انتقادات كثيرة قد وجهت إلى الحركة الصهيونية وأيديولوجيتها المتطرفة ، وخاصة تجاهلها للشعب الفلسطينى وحقوقه الوطنية ، وانتهاج إسرائيل سياسة القوة والإرهاب لردع العرب وإخلاء فلسطين من غالبية سكانها ، وتحالفها مع الاستعمار البريطانى والإمبريالية الأمريكية وخدمة مصالحهما فى الشرق الأوسط .

(*) David Goldberg : To The Promised Land.

ولا تزال الأيديولوجية الصهيونية تتحكم فى سياسات قادة إسرائيل ، وتدفعهم إلى التطرف فى مواقفهم . وإذا كانت حكومة العمل قد استجابت - إلى حد ما - للمتغيرات الدولية والإقليمية وخططت أولى خطواتها على طريق السلام ، فإنها ظلت تكبل نفسها بقيود تلك الأيديولوجية ، وبدأت مترددة فى الوصول إلى نهاية الطريق .

أما الليكود ، فإنه لا يزال متمسكا بأيديولوجيته المتطرفة التى ورثها عن فلاديمير جابوتنسكى ، ورفضاً للتنازل عن أى جزء مما يعتبره أرض إسرائيل التوراتية . وقد أدى تحالفه خلال حكم بيجين وشامير مع قوى الأصولية الدينية إلى أن أصبحت هذه القوى خطراً لا يهدد السلام مع العرب فحسب ، بل يهدد أمن الفلسطينيين والإسرائيليين كذلك .

وأصبح واضحاً أن بنيامين نيتانياهو يدين بنفس الأيديولوجية ، ويرى فى نفسه القدرة على فرض سلام الصهيونية التصحيحية على العرب ويسط سيطرة إسرائيل على القدس والضفة الغربية وقطاع غزة ومرتفعات الجولان وربما الجنوب اللبنانى أيضاً . ومن أجل ذلك ، استأنف من جديد عمليات الاستيطان المكثف وسارع باتخاذ كافة الإجراءات لاستكمال تهويد القدس ، وبدأ يستخدم وسائل المناورة والمراوغة بإظهار التزامه بالاتفاقات التى عقدها حكومة العمل مع السلطة الفلسطينية فى الوقت الذى يطالب بإعادة التفاوض بشأنها ، ويبدأ رغبته فى استئناف المفاوضات مع سوريا فى حين يعلن تمسكه بإبقاء الجولان تحت السيادة الإسرائيلية .

وجدد نيتانياهو تحالف الليكود مع القوى الدينية والأصولية المتطرفة ، فاستأنف علاقات التعاون مع جماعات المستوطنين والمتطرفين اليمينيين ، مستجيباً لطلباتهم ومغرقاً عليهم الامتيازات التى كانت حكومة العمل قد قامت بإلغائها . وعاد شارون بخططه الاستيطانية الطموحة ، كما عادت الأصولية الدينية بادعاءاتها على الحرم الشريف والمسجد الأقصى وقبة الصخرة آملة أن تتمكن من تحقيقها فى عهد نيتانياهو .

والمتوقع أن يواجه نيتانياهو مقاومة مستميتة من جانب الفلسطينيين والدول العربية ، وأن يجد نفسه واقعاً كذلك تحت ضغوط القوى الإسرائيلية سواء تلك التى تدافع عن عملية السلام ، أو تلك التى تقف إلى أقصى اليمين تطالبه بمزيد من التطرف ويخشى أن تعود المنطقة إلى دوامة التوتر والعنف والحروب .

مراجع الكتاب

- الكتاب المقدس (العهد القديم) .
- أحمد عثمان : تاريخ اليهود (ثلاثة أجزاء - دار الشروق) .
- إسرائيل شاحاك : من الأرشفة الصهيونية (منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث ، ١٩٧٥) .
- إيان لوستيك : الأصولية اليهودية في إسرائيل (مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٩١) .
- شبتاي تيببت : بن جورويون والعرب (ترجمة غازي السعدى - دار الجليل للنشر ، ١٩٨٧) .
- صبرى جريس : اليمين الصهيونية (منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث ، ١٩٧٨) .
- طاهر شاش : المواجهة والسلام في الشرق الأوسط (الطبعة الأولى ١٩٩٥ - الطبعة الثانية ١٩٩٦ - دار الشروق) .
- الدكتور عبد الوهاب المسيرى : موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية (مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، ١٩٧٥) .
- الدكتور عبد الوهاب المسيرى : اليهودية والصهيونية وإسرائيل (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت ، ١٩٧٥) .
- غريس هالسك : النبوة والسياسة (ترجمة من السمالك - جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، ١٩٩٠) .
- لينى برينر : حركة التصحيح الصهيونية (ترجمة دار الجليل ، ١٩٩٠) .

- موسى بيلع : آباء الحركة الصهيونية (دار الجليل ، ١٩٨٧) .
- نور الدين مصالحة : طرد الفلسطينيين (مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٩٢) .
- يهو شفاط هركاي : قرارات إسرائيل المصيرية (ترجمة منية سمارة ومحمد الظاهر - دار الكرمل صامد عمان ، ١٩٩٠) .
- Abel Wahab El messiri : The Land Of Promise - (North American , 1977) .
- Alan Taylor : The Zionist Mind (The Institute for Palestinian Studies , 1974) .
- Amos Elon : The Israelis : Founders and Sons (Penguin Books , 1981) .
- Andre' Chouraqui : La Pensée Juive (Que Sais Je ?) .
- Benjamin Netanyahu - A Place Among The Nations (Bentham Books, 1993) .
- Benni Morris : The Birth of the Palestinian Refugee Problem (Cambridge University Press, 1978) .
- David J. Goldberg : To The Promised Land - A History of Zionist Thought (Penguin Books, 1996) .
- Howard Sachar : A History of Israel Vol II (Oxford University Press , 1987) .
- Isodore Epstein : Judaism (Penguin Books) .
- Josy Eiseberg : Une Histoire Des Juifs (Livre Du Poche) .
- Lavinia And Dan Cohn - Sherbok : A Short History Of Judaism (One World - Oxford , 1995) .
- Lenni Brennet : The Iron Wall (Zed Press , 1984) .
- Menachem Begin : The Revolt (A Bell Book , 1977) .
- Micheal Jansen : Dissonance in Zion (Zed Press , 1987) .
- Michael Palumbo : Imperial Israel (Bloomsbury , 1990) .
- Norman Cantor : The Sacred Chain - A History of the Jews (Fontana Press , 1995) .

- Norman Finkelstein : Image And Reality of the Israel - Palestine Conflict (Verso , 1995).
- Norman Rose : Chaim Weismann (Penguin Books , 1986).
- Paul Johnson : A History of the Jews, (Harper Perennial , 1988).
- Regina Sharif : Non Jewish Zionism (Zed Press, 1983).
- Richard Eliot Friedman : Who Wrote the Bible (Harper Aud Row , 1989).
- Robert Friedman : Zealots For Zion (Rutgers University Press, 1992).
- Sami Hadawi : Bitter Harvest (The New World Press , 1967).
- Susan Hattis Rolef : Political Dictionary of the State of Israel (The Jerusalem Publishing House , 1993).
- Walter La queut : A History Of Zionism (Schoken Books, 1976).
- Yehoshua Porath : In Search of Arab Unity - 1930 - 1945 (Frank Cass , 1986).

رقم الايداع : ١٥٨٢ / ١٩٩٧
I.S.B.N. 977 - 09 - 0368 - x

مطابع الشروقة

القاهرة ٨٠ شارع سيويه المصرى - ت: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

التطرف الإسرائيلي جذوره وحصاده

عاد اليمين الإسرائيلي إلى الحكم متحالفا مع أحزاب دينية يجمع بينهما هدف أساسي ، هو بسط سيادة إسرائيل على ما يعتبرانه أرضها التاريخية والدينية ، حسب مفاهيم تمتد بجذورها إلى معتقدات الحاخامات في وجدان اليهود في شتاتهم . ويستعرض الكتاب جذور التطرف الإسرائيلي ، ملقيا الأضواء على التراثين الديني والتاريخي لليهود وأحوالهم في الشتات ، والظروف التي نشأت فيها الحركة الصهيونية ، واتجاهات تياراتها المختلفة ، ومواقف زعمائها من العرب ، والسياسات التي انتهجها قادة إسرائيل منذ إنشاء الدولة ، والتي تتسم بالتطرف ، الذي قد تعلق لهجته حيناً وقد يغلف بستائر دبلوماسية حيناً آخر ، ابتداء بدافيد بن جوريون وانتهاء ببنيامين نتنياهو ، الذي يسعى جاهداً لنسف عملية السلام من أجل تحقيق أحلامه في إقامة دولة إسرائيل الكبرى .